الفصل الحادى عشر

موقعة الجسر

« ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة ، فقد باء بغضب من الله ، ومأواهم جهنم وبئس المصير » قرآن كريم

انطلق جيش المسلمين يقطع العراق ، قاصداً العراق : وسار فى بجيوشه حتى بلغ الحيرة ، فانتظر هناك : وتزامت الأنباء إليه أن فارس قد استقر لبوران : وأنها أرسلت إلى رستم واستدعته من إسبان ، وجعلت إليه حماية البلاد ، وسلمته قيادة الجيوش ، فكتب تم إلى الدهاقين أن يثوروا ، وبلغ المثنى أن رستم بعث جنداً لقتاله ، ع مساحه ، واجتمع إليه المسلمون ، فانطلق بهم إلى خفان ، وأرسل أبى عبيد ليوافيه هناك ، والتأم جمع المسلمين ، وتأهبوا لملاقاة الفرس .

ثار من الدهاقين أول من ثار جابان فى فرات بادقلى ، فانطلق إليه ش المسلمين ، والتقى الجمعان فى النمارق ، فدارت رحى معركة شديدة ، ر المسلمون ، فزلزلت الأرض ، وصالوا وجالوا ، فكانت رءوس س تطيح ، وكأنما كانت ثماراً أينعت وحان قطافها ، ورأى جابان ل بجيشه فثبت فى الميدان ، وراح يحث جنوده على الثبات ، ولكن ات ، فقد كان الواحد منهم يسقط مجدلا إثر الآخر تحت ضربات لمين ، وراح جابان يذب عن نفسه ، حتى أعياه التعب فوقع أسيراً ، ى به إلى أبى عبيد ، فنظر إليه فألفاه فى ملابس فاخرة ، فراح

يتفحصه ، فقال أحد الجنود :

— إنه الملك .

وقال ثان :

— لابد من ضرب عنقه ، فقد ألب القوم علينا .

وقال ثالث :

— ليقتلن .

فتقدم أحد الجنود وقال :

— إنى أمنته أيها الأمير .

فقال بعض الواقفين فى ثورة وغضب :

— ليقتلن ، لقد أثار القوم علينا .

فأطرق أبو عبيد ساعة ثم رفع رأسه وقال :

— إنى أخاف الله أن أقتله وقد أمنه رجل مسلم ، والمسلمون فى التواد والتناصر كالجسد الواحد ، مالزم بعضهم فقد لزم كلهم .

فقالوا له :

— إنه الملك ، وإنه الذى حاربنا .

— وإن كان .. لا أغدر . لن أقتله أبداً ..

* * *

أدبرت فلول جيش جابان . وتركت الخنارق ، وأسرعت إلى كسكر لتنضم إلى نرسى القائد الكسروى ، ولما رأى نرسى هزيمة جابان أرسل إلى رستم يطلب منه مدداً لوقف خطر العرب الزاحف فى كل مكان ، فوعده رستم بإرسال مدد بقيادة الجالينوس ، ولكن أبا عبيدة فاجأ القوم قبل وصول المدد ، فانهزم الفرس ، وفر نرسى ، فسرح أبو عبيدة جيوشه لإخضاع من حوله من أهل العراق . خرج المثنى على رأس جيشه لاستخضاع بعض مناطق العراق ، فرأى زعيمان من

الزعماء ألا قبل لهما بدفع هؤلاء الناس الذين يحبون الموت حبهم للحياة ، فعزما على مصالحتهم ، فانطلقا إلى المثنى وحادثاه فى أمر الصلح ، فأخذهما إلى أبى عبيد ، فصالحهما على شىء معلوم ، ولما تم الصلح شاء الزعيمان استرضاء أبى عبيد ، فجاءا بآنية فيها ألوان من أطعمة فارس وقدماها إليه وقالا :

ـ هذه كرامة أكرمناك بها ، وقربى لك .

فقال أبو عبيد :

ـ ألم تلزموا الجند وقربتموهم مثله ؟

ـ لم يتيسر ، ونحن فاعلون .

ـ فلا حاجة لنا فيما لا يسع الجند . بئس المرء أبو عبيد إن صحب قوماً من بلادهم أهرقوا دماءهم دونه أو لم يهرقوا ، فاستأثر عليهم بشىء يصيبه . لا والله ، لا يأكل مما أفاء الله عليهم ، إلا مما يأكل أوساطهم .

رأى الجالينوس ترادف انتصار المسلمين ، فخشى أن يكون ذلك نذير تقلص ملك الفرس . . فأسرع إلى رستم يستحثه على العمل على أن يخمد من شوكة المسلمين قبل أن يستفحل الأمر ، وأقلق انتصار العرب الشعب الفارسى ، فتجمهر أمام القصر الملكى ، وجعل يطلب طرد الغزاة ، وأخرجوا (الدرفس كابيان) وهى راية كسرى ؛ وهى من جلود النمور ، طولها اثنا عشر ذراعاً ، وعرضها ثمانية أذرع وكانت على خشبة طوال موصل ، وما كانت فارس تظهرها إلا فى الأمر الشديد ، وسبب اعتزازهم بهذه الراية أن أحد ملوك الفرس جار على رعيته ، وساءهم سوء العذاب ، واسترسلت حكومته فى الظلم والطغيان ، وكممت الأفواه ، وحجرت على الحريات ، فلم يطق حداد ذلك الظلم الشديد ، فهانت نفسه فما قيمة الحياة فى ذلك الأتون البغيض ! وخرج من حانوته ، وخلع الجلد الذى يربطه فى وسطه ، ورفعه على عصا طويلة ، وانطلق فى الطريق

وحده يهتف : « من لا يطيق الظلم فليتبعنى » وتشجع بعضهم فانضموا إليه ، وساروا صوب القصر الملكى ، وفى الطريق كانت الجموع تنضم إلى الصارخين بسقوط الظلم والاستبداد ، وبلغ الشعب الثائر القصر فاقتحموه ، وقتلوا الطاغية ورجال دولته المستبدين ، ونصب الحداد ملكا ، وأسس الدولة الكسروية ، فاتخذ ملوكها راية الحداد شعاراً لهم ، ثم استبدلت بجلد النمور .

عبئت الجيوش فى فارس ، وخرجت على رأسها جاذوية ، والدرفس كابيان ترفرف أمامهم ، فتبعث الحمية فيهم ، وانطلقت الجيوش حتى بلغت الفرات فعسكرت على ضفته ، وأقبلت جيوش المسلمين وعسكرت على الضفة الثانية ، ولم يكن هناك من فاصل بين القوتين المتناحرتين إلا الفرات السارى فى هدوء ، وكأنما المعركة الدامية التى ستجرى فيه وعلى ضفافه لا تعنيه ، ولا تخرجه عن وقاره واتزانه .

أرسل جاذوية إلى أبى عبيد ، إما أن تعبروا إلينا وإما أن تدعونا نعبر إليكم ، فاجتمع رؤساء الجيوش وتداولوا فى الأمر ، وكان من رأيهم أن يدعوا الأعداء تعبر إليهم ، ولكن أبا عبيد كان يرى أن يعبر المسلمون ، فدار الجذب والشد وقال سليط :

ـ لا نعبر .

وقال أبو عبيد .

ـ بل لابد أن نعبر .

وأمر أبو عبيد بإنشاء جسر ، فراح الناس يعملون فى إنشائه ، ولما تم قال أبو عبيد :

ـ تقدم ياسليط .

ـ لولا أنى أكره خلاف الطاعة لاعتذرت بالناس ، ولكنى أسمع وأطيع ، وإن كنت قد أخطأت وأنكرنى عمر معك .

ـــ تقدم أيها الرجل

ـــ أفعل .

وعبر سليط ومن معه ، وعبر المثنى وجيوشه ، وعبر أبو عبيد وباقى المسلمين ، والتفت أبو عبيد إلى الجسر وأمر بقطعه ، فأسرع الناس إليه ليمنعوه ، وقال سلمة بن أسلم :

ـــ أيها الرجل إنه ليس لك علم بما ترى ، وأنت تخالفنا ، وسوف تهلك من معك من المسلمين بسوء سياستك ، تأمر بجسر قد تعقد أن يقطع فلا يجد المسلمون ملجأ من هذه الصحارى والبرارى ، فلا تريد إلا أن تهلكهم فى هذه القطعة .

ـــ يأيها الرجل تقدم فقاتل ، فقد حم ما ترى .

وقال سليط :

ـــ إن العرب لم تلق مثل جمع فارس قط ، ولا كان لهم بقتالهم ، فاجعل لهم ملجأ ومرجعاً من هزيمة إن كانت .

ـــ والله لا فعلت . جبنت ياسليط ؟

ـــ والله ماجبنت ، وأنا أجرأ منك نفسا وقبيلا ، ولكن والله أشرت بالرأى .

ـــ تقدم أيها الرجل . . إلى القتال .

ـــ أفعل .

سوى المسلمون صفوفهم ، واستعدوا لملاقاة الأعداء ، وأقبلت جيوش فارس ، وأمامها فيل عليه التحافيف ، فرأى المسلمون شيئاً لم يروا مثله قط ، وابتدأ القتال ، فجرى الدم أنهاراً ، وراح أبو عبيد وسليط والمثنى يجولون كأسود كواسر ، وأطل الموت من سيوفهم ، وقتل من الفرس ستة آلاف ، وتقدم الفيل ، وراح يضرب المسلمين بخرطومه فدب الذعر بينهم ، وفروا من أمامه ، ولما رأى أبو عبيد ذلك

تَرجل ورمحه فى يده ، واندفع نحو الفيل كالشهاب ، وصوب إلى عينه ضربة هائلة ، فراح الفيل يضرب بيده ، فضرب أبا عبيد ضربة قاتلة ، فسقط مجدلا ، يخبط فى دمه .

رأى الجند ما حل بقائدهم ، فدب الذعر فيهم ، وتقهقروا هلعين ، فأخذهم السيف ، وراح بعضهم يلقى بنفسه فى النهر ، وثبت المثنى وسليط وبعض فرسان المسلمين ، وهتف المثنى أن أعيدوا عقد الجسر ، وراح المسلمون يعقدونه : والمثنى ومن معه يتحملون هجمات الأعداء ، ولما تم عقده هتف ثانية :

— يأيها الناس أنا دونكم فاعبروا على هينتكم ، ولا تدهشوا ، فإنا لن نزايل حتى نراكم من ذلك الجانب ، ولا تغرقوا أنفسكم .

واستمرت الحرب الطاحنة بين المثنى ومن معه وبين جيوش الفرس العازمة على استئصال المسلمين ، وأسرع الناس إلى العبور ، ولكنهم وجدوا عبد الله بن مرثد الثقفى عند رأس الجسر شاهراً سيفه ، يمنع الناس من العبور ، وهو يصيح فيهم :

— لن نفر أبدا . . لن نفر أبدا . . موتوا على ما مات عليه أمراؤكم .

فتكاثروا عليه وأخذوه ، وأتوا به المثنى فضربه ، وقال له :

— ما حملك على هذا ؟

— ليقاتلوا وليموتوا على ما مات عليه أمراؤهم أو يظفروا .

— اذهب ودعهم .

— « ومن يولهم يومئذ دبره ، إلا متحرفا لقتال ، أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ، ومأواهم جهنم وبئس المصير » .

وابتدأ الناس فى عبور الجسر ، وراح المثنى وسليط ومن معهما من فرسان المسلمين يحمون المنسحبين ، وقاتلوا قتال الأبطال ، وهم يتقهقرون صوب الجسر ، وابتدأ من مع المثنى فى العبور ، وأخذ المثنى

يعبر الجسر ، ووقف سليط وحدة على رأسه يحمى المنسحبين ، وكأنما انقلب سليط إلى وحش كاسر ، فراح يضرب ويضرب ، وتفصد العرق منه ونال منه الجهد ، فضربه أحدهم ضربة فسقط مجدلا فى نفس اللحظة التى قطع المثنى فيها الجسر خلفه .

وارتمى المثنى على الشاطىء منهوكا ، وفر المسلمون وهاموا على وجوههم ، ويمم أغلبهم صوب المدينة ، وما بقى مع المثنى إلا نفر قليل ، وأسرعت زوجه سلمى إليه تضمد جراحه .

حاول الفرس عبور النهر ، ومطاردة المسلمين والقضاء عليهم ، وبقى المثنى ومن معه ينتظرون قضاء الله ، بقلوب عامرة بالإيمان ، إن الموت ليقترب منهم ، وما يحول بينهم وبينه إلا ذلك النهر ، فما أيسر أن يعبره الأعداء ، وما أيسر أن يقضوا عليهم ، ومع ذلك لم يرتجفوا ، ولم يرتعدوا فرقا ، بل انتظروا مايحل بهم بقلوب راضية مطمئنة ، انتظروا قضاء الله صابرين ، فلن ينجيهم مما حاق بهم من خطر داهم إلا معجزة من السماء ، وما ودعهم ربهم وما قلاهم ، بل جاء عونه سريعا ، فما همت جيوش الفرس بالعبور حتى سرى نبأ بينهم أن الناس فى المدائن قد ثاروا برستم ، وانقسموا قسمين : قسم معه وقسم مع الفيرزان ، فانشغلوا بذلك ، وانسحبوا ، ولما رأى المثنى انسحابهم ، خر ساجدا لله رب العالمين .

الفصل الثانى عشر

سعد الأســـد عادياً

« يا سعد بنى وهب لا يغرنك من الله أن قيل خال رسول الله ، وصاحب رسول الله ، إن الله عز وجل لا يمحو الخبيث بالخبيث ، ولكنه يمحو الخبيث بالطيب »

عمر بن الخطاب

هام الناس على وجوههم عقب هزيمة الجسر ، تاركين المثنى ومن معه ، وراحوا يقطعون القفار ، حتى بلغ بعضهم المدينة ، فاختبئوا وتحاشوا مقابلة عمر ، وأخذ الناس يعيرونهم بفرارهم ويقولون لهم إن مأواهم جهنم وبئس المصير ، فجزع الفارون جزعا شديداً ، واستحيوا من فرارهم ، ولما انتهى خبر هزيمة الجسر وقتل أبى عبيد إلى عمر شق ذلك عليه ، فكتب إلى عماله على العرب يستحثهم على استنفار العرب وكل من له نجدة وبأس ، وأرسل إلى سعد كتابا يستحثه على استنفار هوازن ، وانطلقت الرسل بالكتب تدعو القبائل التى طريقها إلى المدينة لتوافاة عمر بها ، والقبائل التى طريقها إلى العراق بالانضمام إلى المثنى وشد أزره .

واستمر تعبير القوم للفارين ، فقام عمر وقال : « عباد الله ، اللهم إن كل مسلم فى حل منى ، أنا فئة كل مسلم ، يرحم الله أبا عبيد ، لو كان تحيز فاعتصم بالخيف أو تحيز إلينا ولم يستقل الكتيبة لكنا له فئة ، لا تجزعوا يا معشر المسلمين أنا فئتكم ، إنما انحزتم إلى » . وراح يحث الناس على

الجهاد ويدعوهم للاستعداد للخروج ، فاستعد الناس وخرج عمر فعسكر على ماء قرب المدينة يدعى ضراراً ، والناس لا يعلمون بشيء مما يريد ، واستعمل على مقدمته طلحة بن عبيد الله ، وعلى ميمنته الزبير بن العوام ، وعلى ميسرته عبد الرحمن بن عوف ، وقابله عثمان يسأله عما يريد وعما عزم عليه ، فنادى عمر : « الصلاة جامعة » ، فاجتمع الناس إليه ، فأخبرهم أنه قد عزم على أن يخرج بنفسه لقتال الفرس ، فهتف الناس :

— سر وسر بنا معك .

— استعدوا وأعدوا ، فإني سائر إلى أن يجيء رأي هو أمثل من ذلك .

وبعث عمر إلى أهل الرأي والمشورة ، ودخل عليه على أول من دخل فالتفت عمر إليه وقال :

— ما ترى يا أبا الحسن ، أسير أم أبعث ؟

— سر بنفسك فإنه أهيب للعدو وأرهب له .

وخرج على من عنده ، ودخل العباس في جل مشيخة قريش فسألهم عمر :

— أسير أم أبعث ؟

فقالوا :

— أقم وابعث غيرك ليكون للمسلمين إن انهزموا فئة .

وخرجوا فدخل إليه عبد الرحمن بن عوف فسأله ، فقال عبد الرحمن

— فديت أبي وأمي ، أقم وابعث فإنه إن انهزم جيشك فليس ذلك كزيمتك ، وإنك إن تهزم أو تقتل يكفر المسلمون ، ولا يشهدوا أن لا إله إلا الله أبداً .

وخرج عبد الرحمن ، فدخل عثمان فقال عمر :

— يا أبا عبد الله ، أشر علي أسير أم أقيم ؟

— أقم يا أمير المؤمنين وابعث الجيوش، فإنه لا آمن إن أتى آت أن توجع العرب عن الإسلام ، ولكن ابعث الجيوش وداركها بعضها على بعض ، وابعث رجلا له تجربة بالحرب ومضربها .

— ومن هو ؟

— على بن أبي طالب

— فالقه وكلمه وذاكره ذلك ، فهل تراه مسرعا إليه أولا ؟

وخرج عثمان وقابل علياً ، فذاكره ذلك ، ولكن علياً أبى ذلك وكرهه ، فعاد عثمان وأبلغ عمر رفض على ، فقال عمر :

— ومن نرى ؟

— سعيد بن زيد بن عمرو .

— ليس بصاحب ذلك .

— طلحة بن عبيد الله .

فأطرق عمر ولم يجب ، ثم خرجا وقد عزم عمر على أن يقيم وأن يبعث ، وراح يفكر فيمن يبعثه ، ولما بلغ الناس خطب فيهم :

« أما بعد ، إن الله عز وجل ، قد جمع على الإسلام أهله ، فألف بين القلوب ، وجعلهم فيه إخواناً ، والمسلمون فيما بينهم كالجسد ، لا يخفى منه شيء من شيء أصاب غيره ، كذلك يحق على المسلمين أن يكونوا أمرهم شورى بينهم وبين ذوى الرأى منهم ، فالناس تبع لمن قام بهذا الأمر ، ما اجتمعوا عليه ورضوا به ، لزم الناس وكانوا فيه تبعاً لهم ، ومن قام بهذا الأمر تبع لأولى رأيهم ما رأوا لهم ، ورضوا به لهم . يأيها الناس إنى إنما كنت كرجل منكم حتى صرفنى ذوو الرأى منكم عن الخروج ، فقد رأيت أن أقيم وأبعث رجلا ، وقد أحضرت هذا الأمر من قدمت ومن خلفت » .

واجتمع أهل الرأى ثانية يبحثون فيمن يؤمرونه على حرب الفرس ،

كانوا يتداولون قداح الرأى بينهم ، وافى عمر كتاب سعد بن أبى بمن انتخبه له من أهل النجدة لحرب الفرس ، وهم ألف فارس ، فقال بعض الحاضرين .

— قد وجدته .

فقال عمر :

— من ؟

— الأسد عادياً .

— من هو ؟

— سعد .

— أعلم أن سعداً رجل شجاع ، ولكنى أخشى أن لا يكون له معرفة بتدبير الحرب .

فقال عبد الرحمن بن عوف :

— هو على ماتصف من الشجاعة ، وقد صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وشهد بدراً ، فاعهد إليه عهداً ، وشاورنا فيما أردت أن تحدث إليه ، فإنه لن يخالف أمرك .

فقال عمر :

— إنه رجل شجاع ، ضروب بالسيف رام بالنبل ، ولكنى أخشى أن لا يكون له معرفة بتدبير الحرب .

فقال عثمان :

— هو صاحب ذاك ، ولكنه رجل غائب فى عمل .

— أرى أن أبعث إليه .

فقال عثمان :

— ومره فليشاور قوما من أهل التجربة والتبصر بالحرب ، ولا يقطع الأمور حتى يشاورهم .

وانقضى الجمع وقد اتفقوا على تأمير سعد ، وخرج عمر فألفى جرير ابن عبد الله قدم إلى المدينة ، وقد اجتمعت إليه بجيلة : فاتفق عمر معه على ربع لهم ، وسرحهم إلى العراق لشد أزر المثنى .

بلغ رسول عمر هوازن ، وقابل سعداً ، وطلب منه الشخوص من فوره إلى المدينة ، لمقابلة أمير المؤمنين : فشد سعد الرحيل ، ولما بلغ المدينة ، اتجه إلى عمر وقابله ، فأخبره عمر أنه أصبح أمير الجيوش المقاتلة فى فارس وقال له يوصيه :

— ياسعد بنى وهب ، لا يغرنك من الله أن قيل خال رسول الله ، وصاحب رسول الله ، فإن الله عز وجل لا يمحو الحسن بالسيء ، ولكنه يمحو السيء بالحسن . فإن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا طاعته ، فالناس شريفهم ووضيعهم فى ذات الله سواء ، الله ربهم وهم عباده . يتفاضلون بالعافية ، ويدركون ماعنده بالطاعة ، فانظر الأمر الذى رأيت النبي صلى الله عليه وسلم منذ بعث إلى أن فارقنا فالزمه ، فإنه الأمر . هذه عظتى إياك إن تركتها ورغبت عنها حبط عملك ، وكنت من الخاسرين .

وخرج سعد من عنده يتأهب للانطلاق إلى العراق ، ولما تم تجهيز كل شيء ، وحان أوان الخروج ، دعاه عمر وقال له :

— إنى قد وليتك حرب العراق ، فاحفظ وصيتى ، فإنك تقدم على أمر شديد كريه ، لا يخلص منه إلا الحق ، فعود نفسك ومن معك الخير ، واستفتح به ، واعلم أن لكل عادة عتادا ، فعتاد الخير الصبر ، فالصبر الصبر على ما أصابك أو نابك يجتمع لك خشية الله ، واعلم أن خشية الله تجتمع فى أمرين : فى طاعته ، واجتناب معصيته ، وإنما أطاعه من أطاعه ببغض الدنيا وحب الآخرة ، وعصاه من عصاه بحب الدنيا وبغض الآخرة ، وللقلوب حقائق ينشئها الله إنشاء ، منها السر ومنها

العلانية ، فأما العلانية ، فأن تكون حامده ذامه فى الحق سواء ، أما السر فيعرف بظهور الحكمة من قلبه على لسانه ، وبمحبة الناس ، فلا تزهد التحبب ، فإن النبيين قد سألوا محبتهم ، وإن الله إذا أحب عبدا حببه إلى خلقه ، فاعتبر منزلتك من الله بمنزلتك من الناس ، واعلم أن مالك عند الله مثل مالله الناس عندك .

خرج سعد ومعه أربعة آلاف مقاتل : منهم ثلاثة آلاف من اليمن ، وألف من غيرهم ، وكان فيهم من السراة وزعماء العرب عدد وافر ، منهم عمرو بن معد يكرب ، وسار الجيش وسار عمر معهم حتى بلغوا الأعوص ، فوقف عمر يودع الجيش فخطبهم :

— إن الله تعالى ضرب لكم الأمثال ، وصرف لكم القول ليحيى به القلوب ، فإن القلوب ميتة فى صدورها حتى يحيها الله ، من علم شيئا فليتنفع به وإن للعـــدل أمارات ، وتباشير ، فأما الأمارات فالحياء والسخاء واللين ، وأما التباشير فالرحمة ، وقد جعل الله لكل أمر بابا ، ويسر لكل باب مفتاحا ، فباب العدل الاعتبار ومفتاحه الزهد ، والاعتبار ذكر الموت بذكر الأموات والاستعداد له بتقديم الأعمال ، والزهد أخذ الحق من كل أحد قبله حق ، وتأدية الحق إلى كل أحد له حق ، ولا تصانع فى ذلك أحدا ، واكتف بما يكفى من الكفاف ، فإن من لم يكفه الكفاف لم يغنه شىء ، إنى بينكم وبين الله ، وليس بينى وبينه أحد ، وإن الله قد ألزمنى رفع الدعاء عنه ، فأتونى شكاتكم إلينا ، فمن لم يستطع فإلى من يلغناها ، تأخذ له الحق غير متتع .

وانطلق جيش سعد ليخوض غمار أعظم المعارك هولا فى التاريخ الإسلامى ، وقفل عمر عائدا إلى المدينة .

الفصل الثالث عشر

أفول النجم

« إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم ، بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعدا عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، ذلك هو الفوز العظيم »
قرآن كريم

انسحبت جيوش الفرس بعد أن بلغها خبر انقسام الناس فى المدائن ، قسم مع رستم وقسم مع الفيرزان ، فساعد ذلك المثنى على أن يستجم وأن يجمع شتات جيشه ، وخرج يستنفر القبائل التى حوله فنجح فى ضم خلق كثير إليه ، وبذلك جمع جيشاً يستطيع أن يصمد إلى أن يبلغه مدد المدينة .

وانطلق جرير من المدينه قاصداً العراق ، فمر بناحية الأبلة ، ثم صعد بناحية المدائن ، وعلم مرزبان المدائن بمقدمه ، فأعد جيشاً للاقاته من عشرة آلاف مقاتل ، وبلغ جرير فى زحفه الدجلة ، فقال له من معه :

ـ اعبر الدجلة إلى المدائن .

ـ ليس ذلك بالرأى وقد مضى لكم فى ذلك عبرة من مقتل إخوانكم يوم الجسر ، ولكن أمهلوا القوم فإن جمعهم كثير حتى يعبروا إليكم ، إن فعلوا فهو الظفر إن شاء الله تعالى .

ومرت أيام ولم تخرج جيوش الفرس من المدائن ، ثم خرجت وأخذت فى عبور النهر ، فلما عبر منهم النصف أو نحوه ، حمـــل عليهم جرير ومن معه ، ودار القتال رهيباً لاهوادة فيه ولا لين ، واستمرت الكفتان متساويتين حتى قتل المرزبان ، فرجحت كفة المسلمين ، وأخذ الفرس السيف من كل جانب ، فتقهقروا مهزومين ، وسقط خلق كثير منهم فى النهر ، فكان الدجلة مثواهم الأخير ، وتم نصر المسلمين ، فأخذوا ما كان فى معسكر الأعداء ، ثم استأنفوا زحفهم ليلحقوا بالمثنى .

التقى جرير والمثنى بالبخلة ، وأحس الفرس اجتماع العرب وكثرة من جاء من النجدة للمثنى ، ورأى رستم والهيرزان الاتفاق ، وتيقنا الاحتشاد ، والتكاتف فى سبيل إنقاذ الوطن المهدد بالزوال ، فجمعا كلمتهما واتجها إلى بوران ، وأخبراها أنهما عقدا العزم على أن يرسلا مهران فى جيش كثيف لقتال المسلمين ، وخرج مهران فى جيش لجب ونزل من دون الفرات ، وعسكر المثنى وجنده فى البويب على شاطىء الفرات الآخر ، وأقبل أنس بن هلال النمرى مدداً له فى أناس من نصارى النمر ، وقدم عبدالله بن كليب التغلبى فى أناس من نصارى تغلب ، فلما رأى نزول العرب بالعجم ، قال نقاتل مع قومنا ، وانضم ومن معه إلى جند المسلمين .

تأهب العرب والفرس للنزال ، فبعث مهران إلى المثنى : إما أن تعبروا الينا وإما أن نعبر إليكم . فقال المسلمون : اعبروا إلينا .

فأخذ الفرس فى العبور ، وارتفع ضجيجهم ، وصحب عبورهم جلبة شديدة ، فالتفت المثنى إلى المسلمين وقال لهم :

ـــ إن الذى تسمعون فشل ، فالزموا الصمت .

وراح المثنى يتعهد صفوف المسلمين ، ويحضهم ، ويأمرهم بأمره ، وينهاهم بأحسن ما فيهم ، وقال لهم فيما قال :

ـــ إنى لأرجو ألا تؤتى العرب اليوم قبلكم ، والله ما يسرنى اليوم

لنفسى شيء إلا وهو يسرنى لعامتكم .

ثم أردف :

— شدوا عند التكبيرة الرابعة .

وكبر المثنى التكبيرة الأولى ، واستعد المسلمون لسماع التكبيرة الرابعة للهجوم ، ولكن الفرس لم يمهلوهم ، بل عاجلوهم ، وخالطوهم فالتحم الفريقان ، وشد جرير على مروان قائد الجيوش الفارسية وشد حسان بن المنذر عليه ، فطعنه حسان وضربه جرير ، فسقط مروان يتخبط فى دمه .

رأى الفرس ما حل بقائدهم فتضعضعوا ، فشد عليهم المثنى فانهزموا ، فأسرع المثنى إلى الجسر ليمنع مرورهم ، فهربوا مصعدين ومصوبين والسيوف تحصدهم حصداً .

رأى من حضروا واقعة الجسر مع أبى عبيد الفرصة سانحة للقصاص لما نالهم من هزيمة نكراء ، فراحوا يصولون ويجولون ، وتم انهزام الفرس فى البويب ، فانتدب المثنى جرير بن عبد الله لعبور الفرات وتتبع الفارين ، وانتدب معه من شهدوا واقعة الجسر ، فراحوا يجدون فى أثر العدو ، ثم عادوا محملين بالأسلاب الوفيرة ، والغنائم الكثيرة .

واجتمع المسلمون بعد المعركة يتذاكرون ما فعلوه ، فقال جرير :

— قد قتلت مهران ، وسلبت منطقته .

فبلغ ذلك حسان فقال :

ألم ترنى خالست مروان نفسه ... بأسمر فيه كالخلال طرير

فخر صريعاً والتقانى برجله ... فبادر فى رأسى الهمام جرير

فقال قتيلى والحوادث جمة ... وكاد جرير للسرور يطير

فقال أبا عمر وقتلى قتلته ... ومثلى قليل والرجال كثير

فأرسل يميناً أن رمحك ناله ... وأكرم أن تحلف وأنت أمير

ترامت أنباء الهزائم المترادفة الى المدائن ، فثار الشعب ، وأيقن أن الرؤساء أس البلاء ، وسبب النكبة العظمى ، فلولا اقتتال رستم والفيرزان وانشقاقهما ، ماانتصر هؤلاء العرب عليهم ، فاجتمع الناس وشخصوا إليهما ، وقالوا لهما :

— لم يبرح بكما الاختلاف حتى وهنتم أهل فارس ، وأطمعتما فيهم عدوهم ، وإنه لم يبلغ من خطركما أن تتركما فارس على هذا الرأى ، وأن تعرضاها للهلكة ، مابعد بغداد وساباط وتكريت إلا المدائن ، والله لتجتمعان أو لنبدأن بكما قبل أن يشمت بنا شامت ، والله ماجر علينا هذا الوهن غيركم يامعشر الرؤساء ، لقد فرقتم بين أهل فارس وثبطوهم عن عدوهم ، ولولا أن فى قتلكم هلاكنا لعجلنا لكم القتل الساعة ، ولئن لم تنتهوا لنهلكنكم ثم نهلك وقد اشتفينا منكم .

سمع رستم والفيرزان ماسمعا من الشعب الثائر ، فتنبها من غفلتهما ، وخشيا هلاكهما ، فبحثا مع القوم عن رجل من آل كسرى يولونه الملك ، ويجعلونه رمزاً لهم ، ومعقد آمالهم ، ويجمعون عليه كلمة الناس ، فوجدوا يزدجرد بن شهريار ، وكان فى الحادية والعشرين من عمره ، فملكوه عليهم ، والتف الرؤساء حوله ، وراحوا يتنافسون فى معونته ، فرتبوا المساح والجنود ، وشحنوا الثغور بالمقاتلة ، وأعدوا العدة والعديد لقتال المسلمين .

بلغ المثنى اجتماع الفرس على يزدجرد ، وتجهزهم لحرب المسلمين ، فكتب إلى عمر بذلك يطلب منه مددا ، وبينا كان فى انتظار رد أمير المؤمنين ، تمكن الفرس من بث دسائسهم بين أهل العراق ، فكفروا بالعهد ، ونقضوا ما أبرموه بينهم وبين المسلمين ، فخرج المثنى على حامية حتى نزل بذى قار وجاء كتاب عمر وفيه : « أما بعد ، فاخرجوا من بين ظهرى الأعاجم ، وتفرقوا فى المياه التى تلى الأعاجم على حدود

أرضكم وأرضهم ، ولا تدعوا فى ربيعة أحدا ، ولا مضر ولا حلفاءهم أحدا من أهل النجدات ، ولا فارسا إلا أجلبتموه ، فإن جاء طائعا وإلا حشرتموه ، احملوا العرب على الجد إذا جد العجم ، فالتقوا جدهم بجدكم .

اهتم المثنى بأمر عمر ، ففرق الجند على خط واحد ، فكانوا فى العراق من أولها إلى آخرها مسالح بعضهم ينظر إلى بعض ، ويلى بعضهم بعضا ، فصاروا كحصن واحد منيع ، بعيد المنال ، وأعاد الفرس تنظيم مسالحهم ، وشحنوا ثغورهم بالجنود ، واستعد الطرفان لحرب يشيب من هولها الوليد .

أحس المثنى آلاما شديدة مبرحة من أثر ما أصابه من جراح بالغة فى يوم الجسر وغيره ، فاعتكف يشراف ، وكان يسأل عما إذا كان سعد ابن أبى وقاص قد وصل ، واشتد به الألم ، فاستدعى أخاه المعنى بن حارثة ، وأوصاه بزوجه سلمى خيرا ، وراح يذكر له وصيته لسعد ، وطلب منه أن يبلغها إليه ، وبلغ الوجع منتهاه فوهن المثنى ، وتقطعت منه الأنفاس ، ثم لفظ النفس الأخير ، فحزن الناس عليه ، فقد هوى نجم طالما تلألأ ، وخبت شعلة طالما أنارت وبددت دياجير الخطوب .

مات المثنى دون المدائن ، ولم يتمم ما بدأه ، ولم يحقق حلمه الذهبى ، ولكن فليطمئن فى سمائه ، فسيتم سعد كل شىء ، وسيحقق الحلم الجميل .

الفصل الرابع عشر

الرســـــائل

« الصبر الصبر ، فان المعونة تأتى من الله على قدر النية » .
عمر بن الخطاب

انطلق جيش سعد يغذ فى السير حتى نزل بالقرب من نهر زرود من أرض العرب مما يلى العراق ، وراح يتأهب لاستئناف زحفه ، وقبل الرحيل أمده عمر بأربعة آلاف مقاتل ، فصار جيشه عظيما بجنده ، عظيما بمن فيه من خيرة الصحابة الذين شاركوا النبى ضعفه وقوته ، وشهدوا معه غزواته وانتصاراته ، والتفت سعد حوله ، فوقع نظره على سلمان الفارسى ، فعادت به الذكريات إلى عهد الرسول ، يوم تحالف يهود خيبر وقريش والقبائل العربية القاطنة بضواحى مكة على المسلمين ، وعقدوا العزم على توجيه الضربة القاضية للإسلام ، فخرجوا فى عشرة آلاف مقاتل ، فبات أمل المسلمين فى النجاة أوهن من بيت العنكبوت ، وراحوا يقلبون وجوه الرأى بينهم ، فاقترح سلمان حفر خندق عميق حول المدينة ، فحفر الخندق ، وبينما كانوا يحفرونه ، إذ صادفوا كدية شديدة ، استعصت عليهم ، فجاءوا النبى فقالوا : هذه كدية عرضت فى الخندق ، واستأذنوه فى تغيير مجرى الخندق ، فقال : أنا نازل ، وتناول معوله وراح يضربها فتطايرت شرارة فهتف النبى : الله أكبر ! وقال إنه رأى فى هذه الشرارة أنه أعطى مفاتيح سورية ، ثم ضربها ضربة ثانية فتطايرت شرارة فقال إنه رأى فيها أنه أعطى مفاتيح فارس ، ثم ضربها

ضربه ثالثة فصارت رملا لا يتماسك ، وقال النبي ، إنه رأى في الشرارة الثالثة أنه أعطى مقاليد اليمن ، مرت هذه الصور جميعها بمخيلة سعد ، فاطمأن قلبه ، سينصره الله قريباً ، وسيحقق نبوءة نبيه : فقد تحقق كل ما تنبأ به ، فقد أعطيت مقاليد اليمن للمسلمين ، وفتحت سورية ، ولم يبق إلا ملك كسرى .

وبينما كان سعد في الطريق إذ بلغه رسالة من عمر يقول له فيها : « ابعث إلى فرج (ثغر) الهند رجلا ترضاه ، يكون بحياله ، ويكون ردأ لك من شيء أتاك من تلك النحوم ، فنفذ وصية أمير المؤمنين وأنفذ المغيرة بن شعبة في جيشه : فكان بحيال الأبلة من أرض العرب .

أصبحت شراف على مدى البصر ، ولم يبق بين جيش سعد وجيش المثنى إلا اليسير ، فراح الجيش القادم يجد في السير حتى بلغها ونزل بها ، وكان أول ما فعله سعد أن بعث إلى عمر كتاباً يبلغه بمنزله ، فجاءه كتاب عمر وفيه : « إذا جاءك كتابي هذا فعشر الناس ، وعرف عليهم ، وأمر على أجنادهم ، وعبئهم ومر رؤساء المسلمين فيشهدوا ، وقدمهم وهم شهود ، ثم وجههم إلى أصحابهم وواعدهم بالقادسية ، واضمم إليك المغيرة ابن شعبة في خيله ، واكتب إلي بالذي يستقر عليه أمرهم » .

وأرسل سعد إلى رؤساء القبائل : فوافوه فقدر الناس ، وقسمهم إلى أقسام كل قسم مكون من عشرة رجال عليهم عريف ، ثم جعلهم فرقاً كل فرقة عليها أمير ، ثم عبأهم تعبئة تدل على مهارة ودربة ، فجعلهم طلائع ومجردات (كشافة) ، وميمنة وميسرة ، وقلباً وساقة وردءاً (مدداً) ، ورجلا (مشاة) وركبانا .

فرغ سعد من تعبئة جيشه ، ووفد عليه المعنى بن حارثة ، وسلمى زوج أخيه وجنود المثنى ، وتقابل المعنى وسعد ، وأخبره بموت أخيه ، وقال له إنه يوصيه بألا يقاتل عدوه من أهل فارس إذ اجتمع أمرهم

وماؤهم فى عقر دارهم ، وأن يقاتلهم على حدود أرضهم مما يلى أرض العرب . ولما انتهى المعنى من ذكر وصية أخيه ، ترحم سعد على المثنى .

وهم المعنى بالخروج ، ولكن سعداً استوقفه وأمّره على جند أخيه ، وخطب منه سلمى فوافق .

وأرسل سعد إلى عمر يبلغه مافعله ، وانتظر رد أمير المؤمنين ، وجاء الجواب : « أما بعد ، فتعاهد قتلك ، وحادث جندك بالنية والحسبة ، والصبر الصبر ، فإن المعونة تأتى من الله على قدر النية ، والأجر على قدر الحسبة ، والحذر الحذر على ما أنت عليه ، وما أنت بسبيله ، واسألوا الله العافية ، وأكثروا من قول لاحول ولا قوة إلا بالله ، واكتب إلى أيى بعث جمعهم ، ومن رئيسهم الذى يلى مصادمتكم ، فإنه قد منعنى من بعض ما أردت الكتابة به إليك قلة علمى بما هممتم عليه ، والذى استقر عليه أمر عدوكم ، فصف لنا منازل المسلمين ، والبلد الذى بينكم وبين المدائن ، صفه كأنى أنظر إليها ، واجعلنى من أمركم على الجلية ، وخف الله وارجه ، ولا تدل بشىء ، واعلم أن الله قد وعدكم ، وتوكل بهذا الأمر بما خلف له ، فاحذر أن تصرفه عنك ويستبدل بكم غيركم . »

تحرك جيش سعد حتى بلغ العذيب ، فنزل بها ووافاه هناك كتاب من عمر ، فنشره وراح يقرأه للجند : « أما بعد ، فإنى آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال ، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو ، وأقوى المكيدة فى الحروب ، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصى منكم من عدوكم ، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله ، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة ، لأن عددنا ليس كعددهم ، ولا عدتنا كعدتهم ، فإن استوينا فى المعصية كان لهم الفضل علينا فى القوة ، وإلا تنصر عليهم بفضلنا إن لم نغلبهم بقوتنا ، واعلموا أن عليكم فى مسيركم حفظة من الله يعلمون

ماتفعلون ، فاستحيوا منهم ، ولا تعملوا بمعاصى الله ، وأنتم فى سبيل الله ، ولا تقولوا إن عدونا شر منا ، فلن يسلط علينا وإن أسأنا ، فرب قوم قد سلط عليهم شر منهم كما سلط على بنى إسرائيل ، لما عملوا بمساخط الله ، كفار المجوس ، فجاسوا خلال الديار ، وكان وعداً مفعولا ، واسألوا الله العون على أنفسكم ، كما تسألونه النصر على عدوكم ، أسأل الله ذلك لنا ولكم ، وترفق بالمسلمين فى مسيرهم ، ولاتحشمهم مسيراً يتعبهم ، ولا تقصر بهم ، ترفق بهم ، حتى يبلغوا عدوهم والسفر لم ينقص قوتهم ، فإنهم سائرون إلى عدو مقيم ، حامى الأنفس الكراع (الخيل) ، وأقم بمن معك فى كل جمعة يوما وليلة تكون لهم راحة ، يحيون فيها أنفسهم ، ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم ، ونح منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة ، فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق بدينه ، ولا يرزأ أحداً من أهلها شيئاً ، فإن لهم حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء بها ، كما ابتلوا بالصبر عليها ، فما صبروا لكم فتولوهم خيراً ، ولاتضروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح ، وإذا وطئت أرض العدو فأذك العيون بينك وبينهم ، ولا يخف عليك أمرهم ، وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن إلى نصحه وصدقه ، فإن الكذوب لاينفعك خبره وإن صدقك فى بعضه ، والغاش عين عليك ، وليس عيناً لك ، وليكن منك عند دنوك من أرض العدو أن تكثر الطلائع وتبث السرايا بينك وبينهم ، فتقطع السرايا أمدادهم ومرافقهم ، وتتبع الطلائع عوراتهم ، وانتق للطلائع أهل الرأى والبأس من أصحابك ، وتخير لهم سوابق الخيل ، فإن لقوا عدوا ، كان أول ماتلقاهم القوة من رأيك ، واجعل أمر السرايا إلى أهل الجهاد ، والصبر على الجلاد ، لاتخص بها أحداً بهوى ، فتضيع من رأيك وأمرك أكثر مما حميت به أهل خاصتك ، ولا تبعثن طليعة ولا سرية فى وجه تتخوف عليها فيه غلبة أو ضيعة

ونكاية ، فإذا غلبت العدو ، فاضمم إليك أقاصيك ، وطلائعك ، وسراياك ، واجمع إليك مكيدتك وقوتك ، ثم لا تعاجلهم المناجزة ، مالم يستكرهك قتال ، حتى تبصر عورة عدوك ومقاتله ، وتعرف الأرض كلها كمعرفة أهلها بها ، فتصنع بعدوك كصنعه بك ، ثم أذك أحراسك على عسكرك ، وتيقظ من البيات جهدك ، ولا تؤتى بأسير ليس له عقد إلا ضربت عنقه ، لترهب بذلك عدو الله وعدوك . والله ولى أمرك ، ومن معك ، وولى النصر لكم على عدوكم والله المستعان » .

راح سعد يتأهب للانطلاق إلى القادسية ، ، فخصص جندا لحراسة الحريم ، وقدم أمامه زهرة بن الحوية . وهم بالمسير إلى القادسية ، وقبل أن يتحرك بعث عيونه إلى الحيرة ليأتوا له بالخبر ، ولما بلغ القادسية ، لم يجد بها خبراً ، فراح يبعث السرايا للغارة والإرهاب ، واتخذ خطة الدفاع كما أمره عمر ، وانظر أوبة العيون ، ليرسل إلى عمر بمن ولاه الفرس أمرهم .

* * *

نزل سعد القادسية ، فنفر أهل العراق إلى كسرى يزدجرد يستغيثونه ، ويخبرونه بنزول العرب ، وتفرق سراياهم للغارة وطلبوا منه النجدة والعون ، وقالوا له : « إن أبطأ علينا الغياث أعطيناهم بأيدينا » .

أطرق يزدجرد مفكراً فيما يفعل ، فتذكر ما فعلته جيوش العرب بجيوش فارس فى العراق أيام خالد والمثنى ، وانتصارهم المبين فى كل مكان ، فأيقن أن العرب بعد الإسلام ليسوا العرب قبله ، لقد كانوا قبله رعاة إبل ، فشاءوا بعده أن يكونوا رعاة أمم ، إنهم جاءوا ليزلزلوا ملكه ، ملكه الذى عاد إليه أخيراً ، ولما يتمتع به ، إنه لن يسمح لهم باغتصابه ، وإنه ليذود عنه حتى آخر نسمة من حياته ، فهب من مجلسه ،

وراح يقطع قاعة العرش صاعداً هابطاً ، مفكراً ثائراً ، وأخيراً قر رأيه على استدعاء رستم ، فأرسل فى طلبه .

دخل رستم على يزدجرد ، فحياه . وأمره يزدجرد أن يجلس بجواره فلما جلس قال يزدجرد :

— جاء العرب لمناجزتنا فى عقر دارنا ، وإنى رأيت بصفتك قائد قواد الدولة ، وصاحب الرأى فيها أن أوجهك فى هذا الوجه ، فأنت رجل فارس اليوم : وترى ماحل بالفرس مما لم يأتهم مثله .

فأطرق رستم ، وراح يفكر ، فقد كان يوجس خيفة من هؤلاء المردة ، وكان يحس إحساساً غامضاً أن نهايته ستكون على أيديهم ، فرأى أن يقترح على كسرى أن يكون بجواره لتدبير أمور الحرب ، وتسريح الجيوش ، وإقناعه بأن ذلك أجدر من وجوده بساحات الحرب ، فرفع رأسه وقال ليزدجرد بصوت محاولا أن ينم عن الإخلاص والنصيحة :

— إن العرب لاترال تهاب العجم مالم تضربهم بى ، ولعل الدولة ان تثبت بى إذا لم أحضر الحرب ؛ فتكون قد أصبنا المكيدة ، والرأى فى الحرب أنفع من الظفر ، والأناة خير من العجلة ، وإرسال الجيوش بعد الجيوش أشد على العرب من أن يكسروا جيشا كثيفاً مرة واحدة .

— بل لابد من خروجك يارستم .

— قد تخصونى بتضييع الرأى لعدم إحكام نفسى وتزكيتها ، ولو أجد من ذلك بداً لم أتكلم به ، فأشدد فى نصحك ومكنك دعنى أقم بعسكرى وأسرح الجاليوس ، فإن تكن لنا فذاك ، وإلا بعثنا غيره ، حتى إذا لم نجد بداً صبرنا لهم ؛ وقد وهنهم ، ونحن حامون ، فإنى لاأزال مرجواً فى أهل فارس مالم أهزم .

— قد عقدت العزم على خروجك ، وستخرج يارستم لحق هؤلاء المعتدين .

— أمر مولاى .

وراح رستم يستعد لقتال المسلمين ، فجعل على مقدمه الجالينوس فى أربعين ألفاً ، وعلى ميمنته الهرمزان ، وعلى ميسرته مهران ، وكتب إلى الرؤساء بإعداد الحصون ؛ والاستعداد للقتال .

عادت العيون التى بثها سعد إليه لتنبئه بخروج رستم لقتاله ، فكتب إلى عمر أن الفرس قد جردوا لحربه رستم وأعوانه ، وقال له : « فهم يطلبوننا ، ونحن نطلبهم ، وأمر الله بعد ماض ، وقضاؤه مسلم ، إلى ماقدر لنا وعلينا ؛ فنسأل الله خير القضاء وخير القدر فى عافية » .

فبعث إليه عمر : « قد جاءنى كتابك وفهمته ؛ فإذا لقيت عدوك ، ومنحك الله أدبارهم ، فإنه قد ألقى فى روعى أنكم إذا لقيتم العدو هزمتموه ، فاطرحوا الشك ، وآثروا التقية عليه ؛ فإن لاعب أحد منكم أحداً من العجم بأمان أو قرفه بإشارة أو بلسان كان لايدرى الأعجمى ما كلمه به ، وكان عندهم أماناً ، فأجروا ذلك له مجرى الأمان ، وإياكم والضحك ، فإن الخطأ بالوفاء بغية ، وإن الخطأ بالقدر هلكة ، وفيها وهنكم ، وقوة عدوكم ، وذهاب ريحكم ، وإقبال ريحهم ، واعلموا أنى أحذركم أن تكونوا شيئاً على المسلمين ، وسبباً لتوهينهم .

وأرسل إليه كتاباً آخر : « أما بعد ، لا يكربنك ما يأتيك عنهم ، ولا مايأتونك به ، واستعن بالله وتوكل عليه . وابعث إليه رجالا من أهل النظر والرأى والجلد يدعونه ، فإن الله جاعل دعاءهم توهينا لهم ، وفلجا (نصراً وظفراً) عليهم . واكتب إلى فى كل يوم » .

وتقدمت جيوش رستم حتى نزلت بساباط بين المدائن والقادسية بمائة ألف مقاتل أو يزيدون ، وراح سعد ينتخب من سيرسلهم إلى

يزدجرد ليدعوه إلى الإسلام أو الجزية قبل أن تدور الحرب بينهم ، فانتخب نفرا من قادة المسلمين ، ذوى منظر ورأى ، وعليهم مهابة ، ووقع اختياره على النعمان بن مقرن ، وعمرو بن معديكرب ، وعاصم بن عمر ، والمغيرة بن شعبة ، والمعنى بن حارثة ، وآخرين ، وخرج الوفد قاصداً المدائن .

الفصل الخامس عشر

الوفود

« نحن ندعوكم إلى ديننا ، وهو دين حسن الحسن وقبح القبيح كله »
النعمان

خرج الوفد من المعسكر ، وانطلق حتى بلغ رستم ، فتركوا خيولهم ، ودخلوا عليه ، وطلبوا منه مقابلة يزدجرد لعرض شروطهم عليه قبل القتال ، ولما كان رستم غير راغب فى القتال ، فإنه أرسلهم إلى المدائن ، فساروا فى طرقاتها ، مرفوعى الرءوس ، ثابتى الجنان ، وخرج الناس ينظرون إلى أشكالهم وأرديتهم على عواتقهم ، وسياطهم بأيديهم ، والنعال فى أرجلهم : وخيولهم الضعيفة وخبطها على الأرض بأرجلها ، وجعل الناس يتعجبون منهم غاية العجب ، ويتساءلون كيف تمكن مثل هؤلاء من قهر جيوشهم مع كثير عددها وعددها ؟ ! واستمر الوفد فى طريقه حتى بلغ القصر الكسروى ، فلما علم كسرى بوصولهم ، أمر بحبسهم ريثما يجمع وجوه دولته ويستشيرهم فيما يجيبهم به . .

جلس الملك على عرشه ، يحوطه خدمه وحشمه ، وأعيان القوم ، وأذن للوفد بالمثول ، فدخلوا جميعا شامخى الأنوف : وعليهم البرود ، وبأيديهم السياط ، وجىء بالترجمان ، فقال ليزدجرد :

— سلهم ماجاء بهم وما دعاهم إلى غزونا والولوغ ببلادنا ؟ أمن أجل أنا تشاغلنا عنهم اجترأوا علينا ؟

فالتفت النعمان بن مقرن إلى أصحابه وقال لهم :

— إن شئتم تكلمت عنكم ، ومن شاء آثرته .

فقالوا :

— بل تكلم .

فقال النعمان :

— إن الله رحمنا فأرسل إلينا رسولا يدلنا على الخير ، ويأمرنا به ، ويعرفنا الشر ، وينهانا عنه ، ووعدنا على إجابته خير الدنيا والآخرة ، فلم يدع إلى ذلك قبيلة إلا صاروا فرقتين ، فرقة تقاربه ، وفرقة تباعده ، ولا يدخل معه فى دينه إلا الخواص ، فمكث بذلك بما شاء الله أن يمكث ، ثم أمر أن ينبذ إلى من خالفه من العرب ، وبدأ بهم وفعل ، فدخلوا معه جميعا على وجهين ، مكره عليه فاغتبط ، وطائع أتاه فازداد ، فعرفنا جميعا فضل ما جاء به على الذى كنا عليه من العداوة والضيق ، ثم أمرنا أن نبدأ بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف ، فنحن ندعوكم إلى ديننا ، وهو دين حسن الحسن ، وقبح القبيح كله ، فإن أبيتم فأمر من الشر هو أهون من آخر شر منه ؛ الجزاء ، فإن أبيتم فالمناجزة ، فإن أجبتم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله وأقمنا كم عليه ، على أن تحكموا بأحكامه ، ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم ، وإن اتقيتمونا بالجزاء قبلنا ، ومنعناكم وإلا قاتلناكم .

فظهر الغضب فى وجه يزدجرد ، ولكنه تكلف الهدوء وقال :

— إنى لا أعلم فى الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عددا ، ولا أسوأ ذات بين منكم ، قد كنا نوكل بكم قرى الضواحى ، فيكفوننا كم ، لا تغزوكم فارس ، ولا تطمعون أن تقوموا لهم ، فإن كان عدد لحق فلا يغرنكم منا ، وإن كان الجهد دعاكم فرضنا لكم قوتا إلى خصبكم ، وأكرمنا وجوهكم ، وكسوناكم ، وملكنا عليكم ملكا يرفق بكم .

فسكت القوم ساعة ، وساد المكان السكون ، إلى أن قال المغيرة :

— أيها الملك ، إن هؤلاء رءوس العرب ووجوههم ، وهم أشراف يستحيون من الأشراف ، وإنما يكرم الأشراف الأشراف ، ويعظم حقوق الأشراف الأشراف ، ويفهم الأشراف الأشراف ، وليس كل ما أرسلوا به جمعوه لك ، ولا كل ما تكلمت به أجابوك عليه ، وقد أحسنوا ولا يحسن بمثلهم إلا ذلك ، فجاوبني لأكون الذي أبلغك ، ويشهدون على ذلك أنك وصفتنا صفة لم تكن بها عالما ، فأما ما ذكرت من سوء الحال ، فما كان أسوأ حالا منا ، وأما جوعنا فلم يشبه الجوع ، كنا نأكل الخنافس والجعلان والعقارب والحيات ، فنرى ذلك طعامنا ، وأما المنازل فإنما هي ظهر الأرض ، ولا نلبس إلا ما غزلنا من أوبار الإبل ، وأشعار الغنم ، ديننا أن يقتل بعضنا بعضا ، ويغير بعضنا على بعض ، وإن كان أحدنا ليدفن ابنته حية ، كراهية أن تأكل من طعامنا ، فكانت حالنا قبل اليوم على ما ذكرت لك ، فبعث الله إلينا رجلا معروفا ، نعرف نسبه ، ونعرف وجهه ومولده ، فأرضه خير أرضنا ، وحسبه خير أحسابنا ، وبيته أعظم بيوتنا ، وقبيلته خير قبيلتنا ، وهو بنفسه كان خيرنا ، في الحال التي كان فيها أصدقنا وأحلمنا ، فدعانا إلى أمر فلم يجبه أحد : أول من ترب كان له ، وكان الخليفة من بعده ، فقال وقلنا ، وصدق وكذبنا ، وزاد ونقصنا ، فلم يقل شيئا إلا كان ، فقذف الله في قلوبنا التصديق له واتباعه ، فصار فيما بيننا وبين رب العالمين ، فما قال لنا فهو قول الله ، وما أمرنا فهو أمر الله ، فقال لنا إن ربكم يقول إني أنا الله وحدي لا شريك لي ، كنت إذ لم يكن شيء ، وكل شيء هالك إلا وجهي ، وأنا خلقت كل شيء ، وإلي يصير كل شيء ، وإن رحمتي أدركتكم ، فبعثت إليكم هذا الرجل لأدلكم على السبيل التي بها أنجيكم بعد الموت من عذابي ، ولأحلكم داري ، دار السلام ، فنشهد عليه أنه

جاء بالحق من عند الحق ، وقال من تابعكم على هذا فله مالكم ، وعليه ماعليكم ، ومن أبى فأعرضوا عليه الجزية ، ثم امنعوه مما تمنعون منه أنفسكم ، ومن أبى فقاتلوه ، فأنا الحكم بينكم ، فمن قتل منكم أدخلته جنتى ، ومن بقى منكم أعقبته النصر على من ناوأه ، فاختر إن شئت الجزية عن يد وأنت صاغر ، وإن شئت فالسيف ، أو تسلم فتنجى نفسك .

فثار يزدجرد ، وفار الدم فى عروقه ، ولم يستطع كبت عواطفه ، بل قال غاضبا :

— أتستقبلنى بمثل هذا ؟

— ماستقبلت إلا من كلمنى ، ولو كلمنى غيرك لم أستقبلك به .

— لولا أن الرسل لاتقتل لقتلتكم ، لاشىء لكم عندى .

ثم التفت إلى بعض من حوله وقال :

— ائتونى بوقر تراب .

فجىء بوقر تراب فالتفت كسرى إلى من حوله وقال :

— احملوه على أشرف هؤلاء ، ثم سوقوه حتى يخرج من باب المدائن .

ثم التفت إلى المسلمين وقال والشرر يتطاير من عينيه :

— ارجعوا إلى صاحبكم فاعلموا أنى مرسل إليكم رستم حتى يدفنكم ويدفنه فى خندق القادسية ، وينكل به وبكم من بعد ، ثم أورده بلادكم حتى أشغلكم فى أنفسكم بأشد مما نالكم من سابور .

ثم صمت قليلا وأردف :

— من أشرفكم ؟

فطأطأ المسلمون رءوسهم برهة ، ثم تقدم عاصم بن عمرو وقال :

— أنا أشرفهم ، أنا سيد هؤلاء ، فحملنيه .

— أكذاك ؟

فقالوا جميعا :

— نعم .

حمل عاصم التراب على عنقه ، وخرج به من إيوان كسرى ، وخرج العرب خلفه ، فضحك الوجوه ممن منه ، وما دار بخلدهم أنه خرج بأرضهم .

وضع عاصم التراب أمامه على دابته ، وقفل الوفد عائدا إلى القادسية : وما إن بلغاها حتى أسرعوا بالدخول على سعد ، وما إن وقع نظر عاصم عليه حتى صاح :

— أبشر ، فقد والله أعطانا الله أقاليد ملكهم .

* * *

عاد رستم إلى ساباط ، وأمر قواده أن يصيبوا له رجلا من العرب ، فخرج الجالينوس سرية فى مائة وانطلق إلى القادسية ، وغافل القوم ، واختطف رجلا دون القنطرة ، فاستغاث ، فثار الناس لنجدته ، ولكن الجالينوس راح يذهب الأرض بجواده ، وجنوده فى أثره ، ولم يستطع المسلمون اللحاق بهم ، وبلغوا عسكرهم ، واقتيد العربى إلى رستم ، فسأله :

— ما جاء بكم وما تطلبون ؟

— جئنا نطلب موعود الله .

— وما هو ؟

— أرضكم وأبناؤكم ودماؤكم ، إن أبيتم أن تسلموا .

— فإن قتلتم قبل ذلك ؟

— فى موعود الله أن من قتل منا قبل ذلك أدخله الجنة ، وأنجز لمن بقى منا وعده ، فنحن على يقين .

— قد وضعنا إذن فى أيديكم ؟

— ويحك يا رستم إن أعمالكم وضعتكم فأسلمكم الله بها ، فلا يغرنك ما ترى حولك ، فإنك لست تحاول الإنس ، إنما تحاول القضاء والقدر ، فظهر الغضب فى وجه رستم ، وصاح بمن حوله :

— اضربوا عنقه .

* * *

تركت جيوش رستم ، وسارت حتى نزلت ببرس ، فراح جنوده يسلبون الناس أشياءهم ، ويعيثون فى الأرض فساداً ، فشربوا الخمر ، وأتوا النساء ، فضج الناس مما يلقون ، وشكوا إليه ما يلقون فى أموالهم وأبنائهم ، فقام فيهم فقال :

— يا معشر أهل فارس ، والله لقد صدق العربى ، والله ما أسلمنا إلا أعمالنا ، والله للعرب فى هؤلاء ، وهم لهم ولنا حرب ، أحسن سيرة منكم ، إن الله كان ينصركم على العدو ويمكن لكم فى البلاد بحسن السيرة وكف الظلم والوفاء بالعهود والإحسان ، فأما إذ تحولتم عن ذلك إلى هذه الأعمال ، فلا أرى الله إلا مغيراً ما بكم ، وما أنا بآمن أن ينزع سلطانه منكم .

وانطلق رستم إلى الحيرة ، فلما بلغها دعا وجوه القوم وقال لهم

— يا أعداء الله ، فرحتم بدخول العرب علينا بلادنا ، وكنتم عيونا لهم علينا ، وقويتموهم بالأموال .

فصمت القوم ، وساد المكان سكون قاتل ، وأخيراً قال أحدهم :

— أما أنت وقولك إنا فرحنا بمجيئهم فماذا فعلوا ، وأى ذلك من أمورهم نفرح ، إنهم يزعمون أنا عبيدهم ، وما هم على ديننا ، وإنهم ليشهدون علينا أنا من أهل النار ، وأما قولك إنا كنا عيوناً لهم فما الذى يحوجهم إلى أن نكون عيوناً لهم ، وقد هرب أصحابكم منهم ، وخلوا لهم القرى ، فليس يمنعهم أحد من وجه أرادوه ، إن شاءوا أخذوا يميناً أو شمالا ،

أما قولك إنا قويناهم بالأموال ، فإنا صانعناهم بالأموال عن أنفسنا ، إذلم تمنعونا، مخافة أن نسبي ، وأن نحرب ، وتقتل مقاتلتنا ، وقد عجز منهم من لقيهم منكم ، فكنا نحن أعجز ، لعمرى أنتم أحب إلينا منهم ، وأحسن عندنا بلاء فامنعونا منهم نكن لكم أعواناً ، فإنما نحن بمنزلة علوج السواد عبيد من غلب .

* * *

نزل رستم النجف ، فأرسل سعد طلائعه،وأمرهم أن يصيبوا رجلا ليسأله عن أهل فارس ، فخرج طليحة فى خمسة ، وخرج عمرو بن معديكرب فى خمسة ، وانطلق الجميع وكانوا يحسبون أنهم سينطلقون حتى النجف ، ومادروا أن العدو قد فصل منها ، وقطعوا فرسخاً واحداً ، وهموا بقطع الآخر ، ولكنهم رأوا مسالح العدو ، فقد تحرك العدو ، وأصبح منهم قريبا ، فقال بعضهم :

— ارجعوا إلى أميركم ، فإنه سرحكم وهو يرى أن القوم بالنجف ، فأخبروه الخبر .

وقال بعضهم :

— ارجعوا لاينذر بكم عدوكم .

فقال عمرو :

— صدقتم .

وقال طليحة :

— كذبتم ، ما بعثتم لتخبروا عن السرح ، وما بعثتم إلا للخبر .

— فما تريد ؟

— أريد أن أخاطر القوم أو أهلك .

— ارجع بنا .

— لن أرجع ، سأهجم على معسكرهم .

فلم ير القوم بداً من أن ينطلقوا معه ، وبلغ سعد خبرهم ، فبعث قيس بن هبيرة فى مائة لإعادتهم ، فراح قيس يغذ فى السير حتى بلغهم ، فأمرهم أن يعودوا .

فقال عمرو :

ـــ سنغير على القوم .

ـــ إن الأمير يأمركم بالعودة ، ولكن أين طليحة ؟

ـــ انفصل عنا وراح يشن الغارة وحده .

ـــ إلى العودة .

وعاد الجميع إلى معسكرهم إلا طليحة ، فإنه انطلق حتى دخل عسكر رستم وراح يجوسه وينظر ويتوسم ، وأقبل الليل ، ولف كل شىء ، وهجع المعسكر ، وقام طليحة ، وراح يدور بعينيه فى المعسكر ، فرأى فرساً ما رأى مثلها قط ، فانتضى سيفه ، وراح يزحف صوب الفرس ، ولما اقترب منها قطع مقودها وضمه إلى مقود فرسه ، ثم امتطى فرسه ، وراح يعدو خارجاً من المعسكر ، فتنبه الناس إليه ، وخرجوا فى أثره ، وابتدأت المطاردة ، فراح طليحة يطوى الأرض طياً ، وينهبها نهباً ، وثار النقع ، وراحت حوافر الجوادين تضرب الأرض بقوة ، واقترب فارس من الجند منه ، ثم غشيه ويوأ له الرمح ليطعنه ، فعدل طليحة فرسه ، فندر الفارس بين يديه ، فكر عليه طليحة ، وصوب إليه رمحه ، فقصم ظهره ، واستأنف جريه ، والفرس فى أثره ، واقترب منه فارس وسدد له رمحه ، ولكنه لحق برفيقه ، وناله ماناله ، واقترب منه ثالث وقد رأى مصرع صاحبيه ، وصوب رمحه لينتقم لهما ، ولكن طليحه عدل فرسة ، فندر الفارس أمامه وكر عليه طليحة ، ودعاه إلى الإسار ، وأيقن الفارس أنه سيقتل ، فاستأسر ، فطلب منه طليحة أن يعتلى جواده ، وأن يركض بين يديه ، ففعل ، وانطلقا والناس فى أثرهما ، ولاح معسكر المسلمين ،

فلم يكن طليحة فرسه ، وفرس أسيره ، فدخلا المعسكر ، ولم يجد الناس بداً من أن يتركوا الأسير ، وأن يقفلوا راجعين .

دخل طليحة على سعد ، فقال له سعد :

ـــ ويحك ! ماوراءك ؟

ـــ دخلت عساكرهم ، وجستها منذ الليله ، وقد أخذت أفضلهم توسماً ، وما أدرى أصبت أم أخطأت ، وها هو ذا فاستخبره .

فدعا سعد ترجماناً ، وراح يسأل الأسير عن أحوال الفرس .

فقال الرجل :

ـــ أتؤمننى على دمى إن أصدقتك ؟

ـــ نعم ، الصدق فى الحرب ، أحب إلينا من الكذب .

ـــ أخبركم عن صاحبكم هذا قبل أن أخبركم عمن قبلى . باشرت الحروب وغشيتها ، وسمعت بالأبطال ولقيتها ، منذ أنا غلام إلى أن بلغت ماترى ، ولم أر ولم أسمع بمثل هذا ، إن رجلا قطع عسكرين لايجترىء عليها الأبطال ، إلى عسكر فيه سبعون ألفاً يخدم الرجل منهم الخمسة والعشرة إلى ماهو دون ، فلم يرض أن يخرج كما دخل حتى سلب فارس الجند ، وهتك أطناب بيته ، فأنذره فأنذرنا به فطلبناه ، فأدركه الأول فقتله ، وأدركه الثانى فقتله ، ثم أدركته ، فرأيت الموت فاستأسرت .

ثم صمت الرجل قليلا ، والتفت إلى طليحة ، وبان الإعجاب فى عينه ، فسأله سعد :

ـــ كم عددكم ؟

ـــ الجند عشرون ومائة ألف ، والأتباع مثلهم خدام لهم .

* * *

خرج رستم من معسكره ، وسار حتى بلغ قنطرة القادسية ، فتأمل القوم ، فرأى عسكراً كثيراً ، وراح ينظر حوله فرأى جيشاً لجباً ،

فأحس ضيقاً ، وعاد إلى عسكره وهو يفكر فى أمر المسلمين وفى أمره ، وأقبل الليل ومد فى ردائه الأسود ، فدخل سريره لينام ، ولكن النوم جافاه ، وراح فكره يعمل وينتقل به من مكان إلى مكان ، وانقضى الوقت وئيداً ، وأخذ رستم يتقلب فى سريره ضجراً ، وأخيراً ترفق به ملاك النوم ، فطوقه بذراعيه .

نام رستم ، ولم يكد يستغرق فى نومه حتى رأى فيما يرى النائم ملكاً وأعرابياً يدخلان عسكر الفرس ، وعلم أن الإعرابى هو عمر خليفة المسلمين ، ثم رأى الملك يتجه إلى سلاح فارس فيختمه ثم يحزمه ، ويدفعه إلى عمر . فاستيقظ رستم من نومه ، وأحس قلقاً وتبرماً ، وأخذت الأفكار السود تهاجمه ، وكان يحاول طردها بلا جدوى ، وغلبه النوم فنام ثانية ، ولكنه مالبث أن رأى أعرابياً يدخل عليه ويذبحه ذبح الشاة ، فهب من نومه مذعوراً ، وراح يتحسس رقبته ، واستوى فى سريره وقد طار النوم من عينيه ، وجعل يفكر فى الحرب ، فرأى أن خير مايفعله الفرس مهادنة العرب .

ولما النهار خرج رستم من معسكره ، ويمم صوب معسكر المسلمين ، وسار فوق قنطرة القادسية ، وأرسل رجلا إلى زهرة بن الحويّة ، فوافاه ، فراح رستم يحادثه ويعرض عليه جعلا على أن ينصرف عنه . وقال له : — أنتم جيراننا ، وقد كانت طائفة منكم فى سلطاننا ، فكنا نحسن جوارهم ، ونكف الأذى عنهم ، ونوليهم المرافق الكثيرة ، ونحفظهم فى أهل باديتهم ، فنرعيهم مراعينا ، ونميرهم من بلادنا ، ولا نمنعهم من التجارة فى شىء من أرضنا ، وقد كان لهم معاش .

— صدقت . قد كان ماتذكر ، وليس أمرنا أمر أولئك ، ولا طلبتنا طلبتهم ، إنا لم نأتكم لطلب الدنيا ، إنما طلبتنا وهمتنا الآخرة ، كنا كما ذكرت يدين لكم من ورد عليكم منا ، ويضرع إليكم يطلب ما فى أيديكم ،

ثم بعث الله تبارك وتعالى إلينا رسولا ، فدعانا إلى ربه فأجبناه ، فقال لنبيه صلى الله عليه وسلم ، إنى قد سلطت هذه الطائفة على من لم يدن بدينى ، فأنا منتقم بهم منهم ، وأجعل لهم الغلبة مادامو مقرين به ، وهو دين الحق لا يرغب عنه أحد إلا ذل ، ولا يعتصم به أحد إلا عز .

— وما هو ؟

— أما عموده الذى لايصلح منه شىء إلا به فشهادة أن لا إله الا الله ، وأن محمداً رسول الله ، والإقرار بما جاء من عند الله .

— وأى شىء أيضا ؟

— وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله تعالى .

— حسن ، وأى شىء أيضاً ؟

— والناس بنو آدم وحواء ، إخوة لأب وأم .

— أرأيت لو أنى رضيت بهذا الأمر ، وأجبتكم إليه ومعى قومى ، كيف يكون أمركم ، أترجعون ؟

— أى والله ، ثم لا نقرب بلادكم أبداً ، إلا فى تجارة أو حاجة .

جمع رستم أشراف أمته وقواده ، وراحوا يتذاكرون ما يفعلون ، فقال لهم رستم إنه يرى أن يرسل إلى سعد ليبعث لهم رجلا من قومه يكلمونه ويكلمهم ، فوافق القوم ، وبلغ الرسول معسكر المسلمين ، فرأى سعد أن يرسل وفداً من ذوى الرأى والنظر ، ولكن ربعى بن عامر قال له :

— إن الأعاجم لهم آراء وآداب ، ومتى نأتهم جميعاً ، يروا أنا قد احتفلنا بهم ، فلا تودهم على رجل .

فوافق الجميع على هذا الرأى ، فقال ربعى :

— فسرحونى .

خرج ربعى إلى معسكر رستم ، فلما بلغ القنطرة ، احتبسه الذين

عليها ، وأرسلوا لرستم أن رسولا من قبل المسلمين قد أقبل ، فجعل رستم يستعد لملاقاته ، وشاء أن يسلبه لبه بما عنده ، فأمر ببسط البسط والنمارق ، ووضع سرير الذهب ، وألبس زينته من الأنماط والوسائد المنسوجة بالذهب ، وتمدد رستم عليه ، ثم أمر بدخول الرسول .

أقبل ربعى على فرس له زباء قصيرة ، ومعه سيف ، كان غمده لفافة ثوب خلق ، ورمحه معلوب بقد ، واستمر على فرسه حتى بلغ أدنى البسط ، فقال له من كانوا حول رستم :

— انزل .

فاستمر يسير بفرسه حتى وقفت على البساط ، فنزل عنها وتلفت حوله يبحث عن شىء يربطها به ، فلم يجد إلا وسادتين مزركشتين ، فشقهما ، وأدخل الحبل فيهما ، ثم ربط الفرس ، ونظر إليهم ، فلم يجد من يحاول أن يمنعه ، فأيقن أنهم أرادوا أن يروه التهاون ، فهب واقفاً ، وتقدم نحو رستم ، فقالوا له :

— ضع سلاحك .

— إنى لم آتكم فأضع سلاحى بأمركم ، وأنتم دعوتمونى ، فإن أبيتم أن آتيكم إلا كما أريد وإلا رجعت .

وبلغ رستم مقالته فقال :

— إئذنوا له ، هل هو إلا رجل واحد ؟

فأقبل ربعى يتوكأ على رمحه ، وشاء استخراجهم ، فراح يعمل رمحه فى النمارق والبسط وهو سائر ، فما ترك لهم نمرقة ولا بساطاً إلا أفسده ، وتركه متهتكا مخرقاً ، فلما دنا من رستم التف به الحرس ، فجلس على الأرض وركز رمحه بالبسط ، وعرض عليه رستم الجلوس بالقرب منه فقال :

— إنا لا نستحب القعود على زينتكم .

— ما جاء بكم ؟

— الله ابتعثنا ، والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه ، فمن قبل ذلك منا قبلنا ذلك منه ، ورجعنا عنه وتركناه وأرضه يليها دوننا ، ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نفضى إلى موعود الله .

— وما موعود الله ؟

— الجنة لمن مات على قتال من أبى ، والظفر لمن بقى .

— قد سمعت مقالتكم ، فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا ؟

— نعم . كم أحب إليكم : أيوماً أم يومين ؟

— لا . بل حتى نكاتب أهل رأينا ورؤساء قومنا .

— إن مما سن لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعمل به أئمتنا ألا نمكن الأعداء من آذاننا ، ولا نؤجلهم عند اللقاء أكثر من ثلاث ، فنحن مترددون عنكم ثلاثا ، فانظر فى أمرك وأمرهم ، واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل ، اختر الإسلام ، وندعك وأرضك ؛ أو الجزاء فنقبل ونكف عنك ، وإن كنت عز نصرنا غنياً تركناك منه ، وإن كنت إليه محتاجاً منعناك ، أو المنابذة فى اليوم الرابع ، ولسنا نبدأك فيما بيننا وبين اليوم الرابع إلا أن تبدأنا . أنا كفيل لك بذلك على أصحابى ، وعلى جميع من ترى .

— أسيدهم أنت ؟

— لا . ولكن المسلمين كالجسد بعضهم من بعض ، يجير أدناهم على أعلاهم

فاختلى رستم برؤساء أهل فارس وراح يحادثهم، ثم عادوا إلى الأعرابى، وجعل أحدهم يسخر من سيفه، ومن غمده الخلق، فأخرج سيفه من خرقته كأنه شعلة نار، ثم غمده، وقال لهم وهو ينصرف:

— انظروا إلى الأجل.

وخرج وتركهم فاغرى أفواههم من الدهشة.

رأى رستم أن يمد فى حبل المفاوضة بينه وبين المسلمين، لعله يوفق إلى تحاشى حربهم، إنه ليحس إحساساً غامضاً أن الدائرة ستدور عليهم إن قاتلوهم، وإنه ليفزع كلما تذكر رؤياه التى أقضت من مضجعه، ليته يستطيع أن يمنع هذه الحرب البشعة التى تلوح له بوجهها البغيض بين لحظة وأخرى، فأرسل إلى سعد أن ابعث إلينا ذلك الرجل، فبعث إليهم سعد حذيفة بن محصن، فانطلق حذيفة على جواده حتى بلغ أدنى بساط رستم، فقيل له.

— انزل.

— ذلك لو جئتكم فى حاجتى، فقولوا لملككم ألّه الحاجة أم لى، فإن قال لى فقد كذب، ورجعت وتركتكم، فإن قال له لم آتكم إلا على ما أحب.

وبلغت رسالة حذيفة إلى رستم، فقال:

— دعوه.

فتقدم بجواده، حتى أصبح بالقرب من سرير رستم، فالتفت إليه رستم وقال له:

— انزل.

— لا أفعل.

— ما بالك جئت ولم يجىء صاحبنا بالأمس.

— إن أميرنا يحب أن يعدل بيننا فى الشدة والرخاء فهذه نوبتى.

— ما جاء بكم ؟

— الله عز وجل من علينا بدينه ، وأرانا آياته حتى عرفناه وكنا له منكرين . ثم أمرنا بدعاء الناس الى واحدة من ثلاث ، فأيها أجابوا إليها قبلنا : الإسلام وننصرف عنكم ، أو الجزاء ونمنعكم إن احتجتم إلى ذلك ، أو المنابذة .

— أو الموادعة إلى يوم ما ؟

— ثلاثا من أمس .

وتركهم وخرج ، فراح أشراف فارس يتشاورون ، وجعلوا يعجبون من هؤلاء القوم الذين يحادثون رستم كما يحادثون عبدا من العباد ، إنهم يعرفون رستم ومكانته ، فما بالهم لا يوقرونه ويبجلونه ؟ ! إنهم يتحدثون عن النصر تحدثهم عن اليقين ، وإنهم به لمؤمنون ، وكأنهم اطلعوا على الغيب فرأوا فيه نصرهم مسطراً ، وظفرهم أمراً مقدراً لاشية فيه . ومضى الليل على رستم كأسوأ ما يمضى ليل ، وفى الصباح أرسل الى سعد أن ابعث لنا رجلا ، فأنفذ لهم المغيرة بن شعبة ، وسار المغيرة حتى دخل على القوم ، وكانوا فى زيهم عليهم التيجان والثياب المنسوجة بالذهب ، ورأى رستم جالساً على سريره ، فاتجه إليه وجلس معه على سريره ، فأسرع الحرس اليه وأنزلوه ، فالتفت إليهم فى استخفاف ، وأجال نظره فرأى عبيداً كثيرين ، فقال الداهية ، وكأنما شاء أن يبذر بذور الفتنة بينهم :

— كانت تبلغنا عنكم الأحلام ، ولا أرى قوماً أسفه منكم ، إنا معشر العرب سواء ، لا يستعبد بعضنا بعضاً إلا أن يكون محارباً لصاحبه ، فظننت أنكم تواسون قومكم كما نواسى ، وكان أحسن من الذى صنعتم أن تخبرونى أن بعضكم أرباب بعض ، وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم فلا نصنعه ، ولم آتكم ولكن دعوتمونى ، اليوم علمت أن أمركم مضمحل ،

وأنكم مغلوبون ، وإن ملكا لا يقوم على هذه السيرة ، ولا على هذه العقول .

فهمهم العبيد برهة ، وراح رؤساء القوم ينظرون بعضهم إلى بعض ، ورأى رستم أن ينقذ الموقف بحصافته فمازح المغيرة وقال له :

ـــ إن الحاشية قد تصنع مالا يوافق الملك .

ثم أردف :

ـــ ما هذه المغازل التى معك ؟

ـــ ماضر الجمرة (السيف) ألا تكون طويلة .

ـــ وما بال سيفك رثا .

ـــ رث الكسوة حديد المضربة .

ـــ كنتم أهل قشف ، ومعيشة سيئة ، لا نراكم شيئاً ولا نعدكم ، وكنتم إذا قحطت أرضكم ، وأصابتكم السنة استغثتم بناحية أرضنا ، فنأمر لكم بالشىء من التمر والشعير ثم نردكم ، وقد علمت أنه لم يحملكم على ما صنعتم إلا ما أصابكم من جهد فى بلادكم ، فأنا آمر لأميركم بكسوة ونعل وألف درهم ، وآمر لكل رجل منكم بوقر تمر وبثوبين وتنصرفون عنا ، فإنى لست أشتهى أن أقتلكم أو آسركم .

ـــ ليس أمامك إلا الإسلام أو الجزية أو السيف .

فاستشاط غضب رستم ، وأيقن ألا مفر من القتال ، فأقسم :

ـــ والشمس ، لا يرتفع لكم الصبح غداً حتى أقتلكم أجمعين .

الفصل السادس عشر

الإنذار الأخير

« والله لإسلامكم أحب إلينا من غنائمكم »

أرسل عمر إلى سعد يستحثه على قتال القوم ، فقد تصرمت الشهور ، ولم يقع قتال بعد ، وأرسل يزدجرد إلى رستم يأمره بمناجزة القوم ، فتأهب سعد ، وأرسل إلى رستم الإنذار الأخير ، أرسل إليه ثلاثة من ذوي الرأي ، فلما دخلوا عليه قالوا له :

ـ إن أميرنا يقول لك إن الجوار يحفظ الولاء ، وإني أدعوك إلى ما هو خير لنا ، ولك العافية ، أن تقبل ما دعاك الله إليه ، ونرجع إلى رضنا وترجع إلى أرضك ، وبعضنا من بعض ، إلا أن داركم لكم ، أمركم فيكم ، وما أصبتم مما وراءكم كان زيادة لكم دوننا ، وكنا لكم وناً على أحد إن أرادكم ، أو قوى عليكم ، واتق الله يا رستم ولا يكونن لاك قومك على يديك ، فإنه ليس بينك وبين أن تغبط به إلا أن تدخل به ، وتطرد به الشيطان عنك .

ـ إني قد كلمت منكم نفراً ولو أنهم فهموا عني ، رجوت أن تكونوا فهمتم ، وإن الأمثال أوضح من كثير من البيان ، وسأضرب لكم لكم ، إن الذباب إذا رأى عسلا طار ، وقال : من يوصلني إليه ، له درهمان ، حتى يدخله ، لا ينهنهه أحد إلا عصاه ، فإذا دخله غرق نشب وقال : من يخرجني له أربعة دراهم ، وإنما مثلكم مثل ثعلب

دخل جحراً وهو مهزول ضعيف إلى كرم ، فكان فيه يأكل ماشاء الله ، فرآه صاحب الكرم ، ورأى مابه فرحمه ، فلما طال مكثه فى الكرم وسمن ، وصلحت حاله ، وذهب ما كان به من هزال ؛ أشر فجعل يعبث بالكرم ، ويفسد أكثر مما يأكل ، فاشتد على صاحب الكرم ، فقال : لا أصبر على هذا من أمر هذا ، فأخذ له خشبة واستعان عليه غلمانه ، فطلبوه ، وجعل يروغهم فى الكرم ، فلما رأى أنهم غير مقلعين عنه ، ذهب ليخرج من الجحر الذى دخل منه ، فتشبب ، اتسع عليه وهو مهزول ، وضاق عليه وهو سمين ، فجاءه وهو على تلك الحال صاحب الكرم ، فلم يزل يضربه حتى قتله ، وقد جئتم وأنتم مهازيل ، وقد سمنتم شيئاً من سمن ، فانظروا كيف تخرجون .

إن رجلا وضع سلا ، وجعل طعامه فيه ، فأتى الجرذان ، فخرقوا سله فدخلوا فيه ، فأراد سده ، فقيل له : لا تفعل ، إذن يخرقنه ، ولكن انقب بجانبه ، ثم اجعل فيهما قصبة مجوفة ، فإذا جاءت الجرذان دخلن من القصبة ، وخرجن منها ، فكلما طلع عليكم جرذ قتلتموه ، وقد سددت عليكم ، فإياكم أن تفتحوا القصبة ، فلا يخرج منها أحد إلا قتل .

فقال أحد المسلمين :

— والله لإسلامكم أحب إلينا من غنائمكم ، ولقتالكم بعد أحب إلينا من صلحكم ، وأما ماضربتم لنا من الأمثال ، فإنكم ضربتم للرجال والأمور الجسام وللجد الهزل ، ولكنا سنضرب مثلكم : إنما مثلكم مثل رجل غرس أرضاً ، واختار لها الشجر والحب ، وأجرى إليها الأنهار ، وزينها بالقصور ، وأقام فيها فلاحين يسكنون قصورها ، ويقومون على جناتها ، فظل الفلاحون فى القصور على مالا يحب ، وفى الجنان بمثل ذلك ، فأطال نظرتهم ، فلما لم يستحيوا من الله أنفسهم ،

استعتبهم ، فكابروه ، فدعا إليها غيرهم ، وأخرجهم منها ، فإن ذهبوا عنها تخطفهم الناس ، وإن أقاموا فيها صاروا خولا لهؤلاء يملكونهم ولا يملكون عليهم ، فيسومونهم الخسف أبداً .

الفصل السابع عشر

القـــــادسية

يوم أرماث

« ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون » قرآن كريم

أحس سعد بألم شديد ، إن به عرق النسا ، ودمامل تمنعه من الجلوس ، إنه لا يستطيع أن يركب أو ينزل إلى أصحابه ، وجاءه رسول وستم يسأله ، إما أن يعبر لهم ، وإما أن يتركهم يعبرون ، فقال سعد له : بل اعبروا أنتم ، وخرج الرسول ، وأحس سعد ضيقا ، إنه لن يستطيع أن يشترك فى أول معركة بينه وبين الفرس ، إنه يريد أن يقاتل المشركين كما قاتل مشركى مكة فى بدر وأحد ، وأن يضرب بقوة ، ويصول ويجول كما ضرب وصال وجال فى تلك الأيام الخوالى ، وعاد الخيال به القهقرى ، فتذكر يوم أحد ، يوم ثبت مع النبى يذب عنه ، ويوم قال له النبى الحبيب : ارم أيها الغلام الحزور فداك أبى وأمى . فثار الدم فى عروقه ، وراح يتململ فى مرقده ، ليته يستطيع أن يقف على قدميه ، إذن لنزل إلى أصحابه ، ولحادثهم ولشاورهم فى الأمر . وأرسل إلى خالد بن عرفطة ، واستخلفه على الناس .

علم المسلمون أن سعدا لن يشترك فى المعركة ، فأخذوا يتنادرون به ، وأعلموا أنه استخلف خالد بن عرفطة ، فاختلفوا عليه ، وبلغ سعد أن الناس يتغامزون عليه ، وأنهم يسخرون به وأن الناس اختلفوا على خالد ،

فاستشاط غضبه ، وقال لبعض من حوله احملونى وأشرفوا بى على الناس ، فحملوه فأكب مطلعا عليهم من سطح القصر ، فلما رأى الناس ما به من وجع عذروه ، قال :

— أما والله لولا أن عدوكم بحضرتكم لجعلتكم نكالا لغيركم .

فقال جرير :

— أما إنى بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن أسمع وأطيع لمن ولاه الله الأمر ، وإن كان عبدا حبشيا ، فقال سعد :

— والله لا يعود أحد بعدها يحبس المسلمين عن عدوهم ، ويشاغلهم وهم بإزائهم إلا سننت به سنة يؤخذ بها من بعدى .

وقتلت الفتنة فى مهدها ، قبل أن تشتد وتقوى فيستفحل خطرها ، وراح سعد يوصى القوم بعد ذلك ، فراح يخطبهم من قصرة ، وهو مكب على وجهه :

— إن الله هو الحق لا شريك له فى الملك ، وليس لقوله خلف ، قال الله جل ثناؤه (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون) . إن هذا ميراثكم وموعود ربكم ، وقد أباحها لكم منذ ثلاث حجج ، فأنتم تطعمون منها ، وتأكلون منها ، وتقتلون أهلها وتجبونهم ، وتسبونهم إلى هذا اليوم بما نال أصحاب الأيام منكم ، وقد جاءكم هذا الجمع وأنتم وجوه العرب ، وخيار كل قبيلة ، وعز من وراءكم ، فإن تزهدوا فى الدنيا ، وترغبوا فى الآخرة : جمع الله لكم الدنيا والآخرة ، ولا يقرب ذلك أحدا إلى أجله ، وإن تقعدوا وتهنوا وتضعفوا تذهب ريحكم وتوبقوا آخرتكم .

وثارت حمية الرؤساء ، فقام عاصم بن عمرو يخطب القوم :

— هذه بلاد قد أحل الله لكم أهلها وأنتم تنالون منهم منذ ثلاث سنين مالا ينالون منكم ، وأنتم الأعلون ، والله معكم إن صبرتم

وصدقتموهم الضرب والطعن ، فلكم أموالهم ونساؤهم وبلادهم ، وإن خرتم وفشلتم ، والله لكم من ذلك جار وحافظ ، لم يبق هذا الجمع منكم باقية ، مخافة أن تعودوا عليهم بمائدة هلاك . الله الله اذكروا الأيام وما منحكم الله فيها ، أولا ترون أن الأرض وراءكم يابس قفار ليس فيها خمر ولا وزر يعقل إليه ولا يمتنع به ، اجعلوا همكم الآخرة .

وأرسل سعد إلى ذوى الرأى والنجدة والشعر ، فوافاه المغيرة وحذيفة وعاصم ، وطليحة وغالب وعمرو بن معديكرب والحطيئة الشاعر وغيرهم ، فلما دخلوا عليه ، قال لهم :

— انطلقوا ، فقوموا فى الناس بما يحق عليكم ، ويحق عليهم عند مواطن البأس ، فإنكم من العرب بالمكان الذى أنتم به ، وأنتم شعراء العرب وخطباؤهم ، وذوو رأيهم ونجدتهم وسادتهم ، فسيروا فى الناس فذكروهم وحرضوهم على القتال .

فخرجوا من عنده وقد عزموا على إثارة حمية القوم ، وحضهم بأحسن ما فيهم ، فلما بلغوا الناس ، وقف قيس بن هبيرة يخطب :

— أيها الناس ، احمدوا الله على ما هداكم له وأبلاكم يزدكم ، واذكروا آلاء الله : وأرغبوا إليه فى عاداته ، فإن الجنة أو الغنيمة أمامكم ، وإنه ليس وراء هذا القصر إلا العراء ، والأرض القفر ، والظراب الخشن والقلوات التى لا يقطعها الأدلة .

وتقدم غالب وقال :

— أيها الناس ، احمدوا الله على ما أبلاكم ، وسلوه يزدكم ، وادعوه يجبكم . يامعشر معد : ماعلتكم اليوم ، وأنتم فى حصونكم (خيلكم) ، ومعكم من لا يعصيكم (سيوفكم) . اذكروا حديث الناس فى غد ، فإنه بكم غد يبدأ عنده ، وبمن بعدكم يثنى .

وتقدم ابن الهذيل الأسدى وقال :

— يامعاشر بعد ، اجعلوا حصونكم السيوف ، وكونوا عليهم كأسود الأجم ، وتربصوا لهم تربص النمور ، وادرعوا العجاج ، وتقوا بالله وغضوا الأبصار ، فإذا كلت السيوف فإنها مأمورة ، وأرسلوا عليهم الجنادل ، فإنها يؤذن فيما لا يؤذن للحديد فيه .

وتقدم بسر وقال :

— احمدوا الله ، وصدقوا قولكم بفعل . فقد حمدتم الله على ماهداكم له ، ووحدتموه ولا إله غيره ، وكبرتموه وآمنتم بنبيه ورسله ، فلا تموتن الا وأنتم مسلمون ، ولا يكونن شيء أهون عليكم من الدنيا ، فإنها تأتى من تهاون بها ، ولا تميلوا إليها ، فتهرب منكم لتميل بكم ، انصروا الله ينصركم .

وقام عاصم بن عمرو وقال :

— يامعشر العرب . إنكم أعيان العرب وقد صمدتم الأعيان من العجم ، وإنما تخاطرون بالجنة ، ويخاطرون بالدنيا ، فلا يكونن على دنياهم أحوط منكم على آخرتكم ، لا تحدثوا اليوم أمراً تكونون به شيئا على العرب غدا .

* * *

اهتم يزدجرد بأمر هذه الواقعة اهتماما عظيما ، وما كان يطيق أن ينتظر الأنباء حتى تصل اليه ، بل شاء أن تبلغه أولا بأول ، فوضع رجلا على باب إيوانه ، ووضع آخر خارج الدار ، ووضع ثالثاً على بعد من الثانى بحيث يسمع ما يهتف به ، ووضع رابعاً وخامساً وسادساً وهكذا حتى بلغ الرجال ميدان القتال ، فلما نزل رستم ، صاح من فى الميدان :

— نزل رستم

فصاح من يليه .

— نزل رستم .

فصاح من بعده

— نزل رستم .

واستمر هذا الخبر ينتقل من رجل الى آخر حتى بلغ مسامع يزدجرد ، وراح من فى الميدان يصف مايحدث أمامه ، والرجال يتصايحون بما يصف ، راح يصيح :

— رستم يلبس درعين ومغفرا ، ومعه سلاحه ، إنه يأمر بفرسه ، قد أوتى بها ، رستم يقفز فإذا هو على فرسه لم يمسسها ، ولم يضع رجله فى الركاب ، رستم يلتفت إلى من حوله ويقول :

— سندقهم دقا .

رستم يتحرك إلى ميدان القتال . . . . . رستم يعبىء فى القلب ثمانية عشر فيلا عليها الصناديق والرجال . . . وفى المجنبتين ثمانية وسبعة عليها الصناديق والرجال . الجالينوس بينه وبين ميمنته ، والبيرزان بينه وبين ميسرته . . . القنطرة بين خيلين من خيولنا وخيول المسلمين ... الأعداء يأخذون مصافهم .

واستمر من فى الميدان يصف مايحدث أمامه ، فتبلغ الأنباء يزدجرد وهو فى إيوانه ،

* * *

راح سعد يطل على ساحة القتال من قصره ، وما كان بمستطيع التحرك ، فقد كان منكفئاً على صدره ، وكان القصر مفتوحا لاباب له ، فلو أن المسلمين هزموا ، ودارت عليهم الدوائر لأخذ سعد أخذاً ، ولكنه لم يقم لذلك وزنا ، وكان همه الأعظم أن يدير المعركة من مكانه ، وأن يبذل مافى وسعه حتى ينتصر المسلمون ، فيعوض مافاته من الاشتراك فى المعركة ، وصاح من مكانه :

— الزموا مواقفكم ، لاتحركوا شيئاً حتى تصلوا الظهر ؛ فإذا صليتم الظهر فإنى مكبر تكبيرة فكبروا واستعدوا ، واعلموا أن التكبير لم يعطه أحد غيركم ، واعلموا أنما أعطيتموه تأييداً لكم ، ثم إذا سمعتم الثانية فكبروا ولتستتم عدتكم ، ثم إذا كبرت الثالثة فكبروا وليفشط فرسانكم الناس ليبرزوا وليطاردوا ، فإذا كبرت الرابعة ، فازحفوا جميعاً حتى تخالطوا عدوكم ، وقولوا لا حول ولا قوة إلا بالله .

وأرسلت أم إلى أبنائها الأربعه ، الذين كانوا فى جيش المسلمين ، فدخلوا عليها وسلموا ، فقالت لهم :

— إنكم أسلمتم فلم تبدلوا ، وهاجرتم فلم تثربوا ، ولم تنب بكم البلاد ، ولم تقحمكم السنة ، ثم جئتم بأمكم عجوز كبيرة ، فوضعتموها بين أيدى أهل فارس ، والله إنكم لبنو رجل واحد ، كما أنكم بنو امرأة واحدة ، ماخلت أباكم ، ولا فضحت خالكم ، انطلقوا فاشهدوا أول القتال وآخره .

وارتفع صوت المؤذن يؤذن بالظهر ، فخرجوا من عندها ، لينضموا إلى إخوانهم المصلين ، وليسألوا الله نصره وتأييده ، ولما غابوا عنها رفعت يديها إلى السماء ، وقالت مبتهلة إلى الله :

— اللهم ادفع عن بنى .

وقضيت الصلاة ، وسرى صوت سعد :

— الله اكبر .

فكبر الناس خلفه ، فارتج المكان ، وأسرعوا إلى صفوفهم ، ومرت مدة ثم هتف سعد :

— الله أكبر .

فتهيأ الرجال للنزال ، واستتموا عدتهم ، وانتظروا سماع التكبيرة الثالثة ليبرز أهل النجدات ، ولم ينقض كبير وقت حتى كبر سعد التكبيرة الثالثة ، فكبر الناس خلفه ، وخرج غالب بن عبد الله يطلب الطعن

والنزال ، فبرز له هرمز ، وكان متوجاً ، عليه ثياب جياد ، فدارا بكليتين كاسرين ، وتبادلا الضربات ، وكان كل يتقى ضربات خصمه ، واستمر القتال بينهما وكان غالب يشد على غريمه ، وبان على هرمز الإعياء ، وحام الموت فوقه ، وأحس هرمز باقتراب الموت إليه ، فسلم ، فأسره غالب ، فارتفعت أصوات المسلمين بالتكبير ، وقاد غالب هرمز أمامه حتى بلغ القصر ، وسلمه إلى سعد ، وعاد إلى الميدان لاستئناف الضرب والقتال .

وخرج عاصم بن عمرو ، وخرج له رجل من أهل فارس ، وما كادا يتبادلان الضربات حتى فر الفارسى ، فجد عاصم فى أثره ، واختفى الرجل فى صفوف الأعداء ، ولمح عاصم رجلا معه بغلة ، فمال نحوه ، فلما لمحه الرجل ، ورأى سيفه يطل منه المنون ، فر منزعجاً تاركا البغلة وما عليها ، فاستلبها عاصم ، وعاد بها إلى سعد ، ولما فحص ما تحمل وجد أطعمة فاخرة ، لقد كان الرجل خباز رستم ، فأمر سعد بتوزيعها على الجند .

وبينا الناس فى انتظار التكبيرة الرابعة ، ليشدوا النواجذ على الأضراس ، ويحملوا على القوم ، كان عمر بن معد يكرب يحض الناس بين الصفين ، وبرز رجل من الفرس ، وراح يسدد سهامه صوب المسلمين ، فما أخطأت سية قوسه وهو متنكبها ، وارتطم سهم من سهامه بدرع عمرو بن معد يكرب ، فثار عمرو ، وخرج إليه ، وانقض عليه انقضاض وحش كاسر ، فاعتنقه ، ثم أخذ بمنطقته فاحتمله بين يديه ، وسار به حتى بلغ صفوف المسلمين ، فوضعه وكسر عنقه ، ثم وضع سيفه على حلقه فذبحه ، ثم ألقاه ، والتفت إلى قومه وقال :

— هكذا فاصنعوا بهم .

فقال بعضهم :

— يا أبا ثور من يستطيع أن يصنع كما تصنع .

وقفت بجيلة تستعد للقتال ، وراح جرير بن عبد الله البجلى يحرض قومه ، ووجه رستم إليهم ستة عشر فيلا ، عليها التوابيت ، وكان على كل فيل عشرون راكباً ، وارتفع صوت سعد بالتكبيرة الرابعة ، ولما صكت آذان المسلمين كبروا خلفه ، وتزاحفوا ليقاتلوا فى سبيل الله صفاً كأنهم بنيان مرصوص .

حمل أصحاب الفيلة على بجيلة ، ففرقت بين الكتائب ، وذعرت الخيل فنفرت ، ودبت الفوضى بينهم ، فراح بعضهم يولى الدبر ، وكان سعد يشرف على المعركة من سطح قصره ، وبجواره سلمى التى تزوجها بعد موت المثنى زوجها ، وأخذا يشاهدان ما أصاب بجيلة ، فتململ سعد ، وبان الضيق فى وجهه ، ورأت سلمى فرار الخيل . فصاحت :

— وامثنياه ولا مثنى للخيل اليوم .

فضاق سعد ذرعاً ، وأحس كأنها لطمته لطمة قاسية ، فما أقعده عن القتال إلا مابه ، فلم يشعر إلا وهو يلطم وجهها ، فظهر الحنق فى وجهها ، وشاءت أن تقتص منه ، وأن تنال من كبريائه كما نال من كبريائها ، فقالت له :

— أغيرة وجبناً ؟ !

وتركته وانصرفت .

وراح سعد يتطلع إلى القتال الدائر تحت بصره ، فرأى بجيلة تكاد أن تؤكل ، فأرسل إلى بنى أسد :

— ذبوا عن بجيلة ومن لافها من الناس .

فقام طليحة بن خويلد يستحث قومه ، فصاح :

— ياعشيرتاه ، إن المنوه باسمه ، الموثوق به ، وإن هذا لو علم أن أحداً أحق بإغاثة هؤلاء منكم لاستغاثهم ، ابتدءوهم الشدة ، وأقدموا عليهم إقدام الليوث الحربة ، فإنما سميتم أسداً لتفعلوا فعله ، شدوا ولاتصدوا ،

وكروا ولا تفروا ، لله در ربيعة ، أى فرى يفرون ، وأى قرن يعنون ، هل يوصل إلى مواقفهم ، فأغنـــوا عن مواقفكم ، أعانكم الله ، شدوا عليهم باسم الله .

فشد القوم . وانطلقوا ليشدوا أزر بجيلة ، وراحوا يطعنون الفيلة ، ولكن الفيلة كانت تشيع الفوضى بينهم ، وبرز فارسى لطليحة ، فراحا يقتتلان ، ودار بينهما قتال رهيب بين صهيل الخيل النافرة ، وتكبيرات المسلمين المدوية ، وسدد طليحة إليه ضربة قاتلة ، فأرداه مجدلا يخبط فى دمه ، وانضم إلى إخوانه ليذب عنهم ، ولكن الفيلة راحت تمزق صفوف المسلمين تمزيقا .

رأى الأشعث بن قيس ما تفعل الفيلة ببجيلة وبنى أسد ، فشا تحريض قومه ليهبوا لنصرتهم ، فقام وقال :

ـــ يامعشر كندة ، لله در بنى أسد ، أى فرى يفرون ، وأى هذ يهذون عن موقفهم ، منذ اليوم أغنى كل قوم وما يليهم ، وأنتم تنظرون من يكفيكم البأس ، أشهد ما أحسنتم إسوة قومكم العرب منذ اليوم ، وإنهم ليقتلون ، ويقاتلون ، وأنتم جثاة على الركب تنظرون .

فثار الغضب فيهم ، ووثب إليه عدد منهم ، وقالوا محنقين :

ـــ عثر الله جدك ، إنك لتؤبسنا جاهدا ، ونحن أحســـن الناس موقفا ، فمن أين خذلنا قومنا العرب وأسأنا إسوتهم ، فهانحن معك .

فانطلق وانطلقوا معه ، يهاجمون الفيلة ومن عليها ، ورأى الفرس ما تلقى الفيلة من المسلمين ، فى هذه الناحية ، فانضم ذو الحاجب والجالينوس بمن معهم إلى هذه الناحية ، فدارت رحى معركة رهيبة ، معركة لا شفقة فيها ولا لين ، فقد عزم المسلمون على إعلاء كلمة الله ، وأخذ الفرس يذبون عن الوطن الحبيب ، عن الأنفس والأهل والديار ؛ واستمرت المعركة قاسية هائلة ، واستمرت الفيلة تعمل عملها الرهيب ، فأحس سعد

فى مكانه بخطرها على أصحابه ، وراح يدور بعينيه فى الميدان يبحث عمن يرسله إليها ليريحه منها ومن أهوالها ، فلم يجد إلا بنى تميم كفواً لها ، فأرسل إلى عاصم بن عمرو يقول له أن يكفه هذه الفيلة ، فوقف عمرو وقال :

- يا معشر بنى تميم ، ألستم أصحاب الإبل والخيل ، أما عندكم لهذه الفيلة من حيلة ؟

— بلى والله .

ونادى قوماً من الرماة وقال لهم :

— يامعشر الرماة ذبوا ركبان الفيلة عنهم بالنبل

ونادى قوما آخرين وقال لهم :

— استدبروا الفيلة واقطعوا وضنها .

فشد الرماة قسيهم ، وأخذت السهام تتطاير فى الجو ، وتثبت فى صدور الرجال الراكبين الفيلة ، وتسلل من انتدبهم عمرو حتى أصبحوا خلف الفيلة ، وراحوا يزحفون بحذر حتى اقتربوا منها ، فأخـــذوا بأذنابها ، وذباذب توابيتها فقطعوا وضنها ، فسقط من فى التوابيت ، فارتفع صياحهم ، وراحت الفيلة تدوس فيمن وقع ، وفرت الفيلة ، وشاع الاضطراب فى صفوف الفرس ، وخف الضغط على أسدوبجيلة ، وراح الناس يعتورون القتال ، ويتبادلون الضرب والطعان ، ويصولون ويجولون ، وسعد فى قصره مشرف على القوم ، يدعو الله أن يؤيد دينه ، وينصر نصره .

مالت الشمس نحو الأفق ، والمعركة دائرة على أشدها ، لم يظهر فريق على فريق ، وأخذت الشمس فى المغيب ، حتى أغمض الأفق البعيد جفنه عليها ، وأخذت المعركة تخف شيئاً فشيئاً ، حتى توقف الفريقان ، وراحا يتأهبان لاستئنافها مع الصباح .

انتظرت الأم العجوز أوبة أولادها الأربعة ، فلما عتمت الدنيا دخلوا عليها جميعا سالمين ، فحمدت الله وراحت تحثهم على استئناف القتال فى اليوم التالى أشد عزما ، وأوثق أملا : واتجهوا لينام وا على أن يهبوا مع الصباح لاستئناف قتال المشركين .

الفصل الثامن عشر

يوم أغواث

ارتفعت الشمس فهب الإخوة الأربعة من نومهم ، وحملوا سلاحهم وخرجوا لينضموا إلى إخوانهم ، وقبل أن ينطلقوا أخذت أمهم تذكرهم بأحسن مافيهم ، وتدعوهم لقتال المشركين بعزم صادق ، وقلب ثابت فإن ظهروا كان النصر المبين ، وإن ماتوا فإلى جنات النعيم ، مع الشهداء والقديسين ، ولما غابوا عن عينيها ، رفعت يديها إلى السماء تبتهل إلى الله ألا يفجعها فيهم ، وأن يعيدهم إليها سالمين .

انطلق الإخوة الأربعة إلى ميدان القتال ، فوجدوا المسلمين على تعبئة ، وكان بعض الرجال ينقلون الشهداء الى العذيب ، وبعضهم ينقلون الرئيث إلى النساء يمرن عليهم ، فانضم الإخوة إلى كتيبتهم ، واستعدوا لسماع الأمر بالزحف ليتزاحفوا ، وبينما كان المسلمون يتأهبون للقتال ، إذ لمحوا فارساً يطوى الأرض طياً ، وينهبها نهباً ، وينطلق كالشهاب نحوهم ، فتطلعوا إليه ، ولما اقترب منهم ترجل عن فرسه ؛ فصاح بعضهم :

— إنه القعقاع بن عمرو .

وقال آخر :

— هذا من قال أبو بكر عنه : لا ينهزم جيش فيهم مثل هذا .

وسلم القعقاع على الناس وسأل عن سعد ، فلما علم بمرضه وأنه فى القصر ، اتجه اليه ، وصعد فألفى سعداً على بطنه ينظر إلى ميدان القتال فسلم عليه ، وقال له :

— أرسل عمر إلى أبي عبيدة كتاباً بصرف أهل العراق أصحاب خالد مدداً لك ، فسرح أبو عبيدة ستة آلاف ، وأمر عليهم ابن أخيك هاشم بن عتبة ، فأمرني هاشم على مقدمته ، فرأيت أن أسرع لأبشركم بالمدد العظيم .

— إنه النصر إن شاء الله .

— قد عهدت إلى أصحابي الذين معي أن يتقطعوا أعشاراً ، وهم ألف ، فكلما بلغ عشرة مدى البصر سرّحوا في آثارهم عشرة ، وإني لآمل أنه كلما وصلت جماعة إلى القتال مكبرة ، زلزلت الأعداء زلزالا .

فبان البشر في وجه سعد ، وسرى الأمل الدفيء في صدره ، وخرج القعقاع إلى الناس وخطبهم :

— يأيها الناس ، إني قد جئتكم في قوم والله أن لو كانوا مكانكم ثم أحسوكم حسدوكم حظوتها ، وحاولوا أن يطيروا بها دونكم ، فاصنعوا كما أصنع .

وتقدم القعقاع للمبارزة ، وانتشت أفئدة المسلمين ، إن المدد قريب ، وسينضم إليهم ويشد أزرهم ، وسيظهرهم الله على عدوه وعدوهم ، وسينصرهم نصراً مؤزراً .

وتقدم القعقاع من صفوف الأعداء وهتف :

— من يبارز ؟ .

فخرج إليه فارس عليه ثياب موشاة ، تعلوه مهابة ، ويدل مظهره على أنه من وجوه القوم ، فسأله القعقاع :

— من أنت ؟ .

— أنا بهمن جاذويه .

فصاح القعقاع :

— يا ثارات أبي عبيد ، وسليط ، وأصحاب يوم الجسر ،

وانقض عليه ، وضربه ضربة ، اتقاها جاذويه ، وأخذا يحومان حول بعضهما ويتبادلان الضربات ، ويتفاديانها بحذق ومهارة ، وأخيراً سدد القعقاع إليه ضربة قاتلة ، فسقط جاذويه قتيلا ، وبرز القعقاع ثانية وصاح :

— من يبارز ؟

فخرج البيرزان والبندوان ليقتصا لجاذويه ، وخرج الحارث بن ظبيان لينضم إلى القعقاع ، واتجه القعقاع إلى البيرزان ، والحارث إلى البندوان ، وراح سعد يتطلع إلى هذه المبارزة ، وكان اهتمامه بها عظيما ، فلو ان القعقاع والحارث انتصرا لخسر جيش الفرس قائدين عظيمين من قوادهم . ودار القتال ، وثار النقع ، وأخذ صوت تقارع السيوف يقرع الآذان ، فيثير الحواس جميعاً ، ويجعل الحماسة تفور فى الصدور ، وكتم سعد أنفاسه ، فقد بلغت المبارزة أقصاها ، ها هو القعقاع يحمل على البيرزان حملة صادقة ، وها هو سيفه يرتفع فى الهواء ثم يهوى على عدوه فيذرى رأسه ، وشد الحارث على غريمه وضربه ضربة انتهى بها كل شيء ، فأحس سعد راحة ، إنها بداية طيبة ، ونظر إلى معسكر الأعداء ، فلم يجد الفيلة ، فقد تكسرت توابيتها بالأمس ولم يتم علاجها بعد ، فحمد سعد الله ، وأمر الناس أن يستعدوا للزحف .

وأخذ جرير يحرض قومه ، وعاصم بن عمرو يحضهم بأحسن ما فيه ، وعمرو بن معد يكرب يحثهم على قتال المشركين ، وقال القعقاع :

— يا معشر المسلمين باشروهم بالسيوف ، فإنما يحصد الناس بها .

وارتفعت تكبيرة سعد تشق الفضاء فتزاحف الناس ، وراح المسلمون يضربون ويضربون ، ووردت الجماعة الأولى من خيل القعقاع مكبرة مهللة ، فكبر المسلمون خلفهم ، ودب النشاط فيهم وأخذوا يقاتلون وقد انتعشت نفوسهم ، وردت الجماعة الثانية والثالثة والرابعة ،

واستمر ورود الجماعات طوال اليوم ، فشد ذلك من أزر المسلمين ، ورفت فى عضد الأعداء ، فأكثر المسلمون فيهم القتل .

بلغ أصحاب القعقاع الميدان وكانوا على إبل ، قد ألبسوها فهى مجللة مبرقعة ، وأطافت بهم خيولهم يحمونهم ، وأمرهم القعقاع أن يحملوا على خيلهم بين الصفين ، فحملوا عليهم ، فأخذت خيول الفرس تنفر من الإبل ، كما نفرت خيول المسلمين من الفيلة أمس ، فدبت الفوضى فى صفوف الفرس ، ورأى رجل ممن يحمى الإبل رستم ، فشاء أن ينطلق اليه ؛ وراح يقتل كل من يقف فى طريقه ، وأصبح على بعد خطوات منه ، ولكنه سقط قتيلا دونه .

انقضى النهار ، وأقبل الليل ، ولكن المعركة لم يخب لها أوار ، فقد رأى المسلمون انتصارهم الباهر ، فشاءوا أن يستمر النزال ، حتى يقضى الله أمره ، واستمر سعد مكباً من فوق القصر ينظر ، فرأى رجلا على فرس بحيال الميمنة يكبر ثم يحمل على ميسرة الأعداء يلعب برمحه وسلاحه بين الصفين ، ثم يرجع من خلف المسلمين إلى الميسرة ، فيكبر ويحمل على ميمنة القوم يلعب بين الصفين برمحه وسلاحه ، وأخذ يقصف الأعداء قصفاً منكراً ، فتعجب سعد من أمره ، وتفرس فى الفرس وغمغم :

— إنها فرسى البلقاء ، ولولا محبس أبى محجن لقلت هذا أبو محجن .

وتطلع مدد القعقاع إلى هذا الفارس المغوار ، وقال بعضهم :

— أوائل أصحاب هاشم .

وقال بعضهم :

— بل هاشم نفسه .

واستمر الفارس يصول ويجول ، ويلعب برمحه وسلاحه ، والناس به جد معجبين ، فقال أحدهم :

— إن كان الخضر يشهد الحروب لكان صاحب البلقاء الخضر نفسه ، وقال آخر :

— لولا أن الملائكة لاتباشر القتال لقلنا : ملك من السماء .

واستمرت المعركة رهيبة ، وانتصف الليل ورحاها دائرة ، وقصف السيوف يدوى فى الليل ، فيمزق سكونه : وانتصبت الأم العجوز فى خيمتها ، تبتهل إلى الله أن يعيد إليها أبناءها سالمين ، وأحست قلقاً ، وشعرت بالخوف يهزها ، لقد انتصف الليل ولم يعودوا ، ترى مادهاهم ، هل استشهدوا جميعا ، أم امتدت المعركة دون توقف ؟ واستمرت الهواجس تهجس فى صدرها ، وراح الشيطان يوسوس لها ، ويلاعب بها كما يلاعب القط بفريسته قبل أن يجهز عليه ، ولكنها لم تسترسل فى أحلامها ، ولم تترك نفسها فريسة طيعة لشيطانها ، بل تعوذت من الشيطان الرجيم ، ثم ذهبت وتوضأت ، وراحت تصلى لله فى هجعة الليل ، فشاعت الطمأنينة فى نفسها ، وعاد إليها هدوؤها ودعتها ، وأتمت صلاتها ، فجعلت تقرأ ماتيسر من القرآن ، وسمعت وقع أقدام فى الخارج ، فتطلعت نحو مدخل الخيمة ، فرأت أشباحاً أربعة ، يتقدمون منهوكين متعبين ، فهزها السرور ، وبانت عليها الغبطة ، فأسرعت إليهم نشيطة خفيفة ، كأنما قد عادت إلى العشرين ، لقد عادوا إليها جميعا سالمين ، وناموا ليأخذوا قسطهم من الراحة ليهبوا أكثر نشاطاً ، وأقوى عزما ، لقتال المشركين .

الفصل التاسع عشر

يوم عمواس

نام الناس جميعاً ، إلا القعقاع ورجاله ، فإنه لما رأى أن جيش هاشم لم يصل بعد ، خشى أن يفت ذلك فى عضد المسلمين ، فراح يسرب أصحابه إلى المكان الذى فارقهم فيه من الأمس ، ثم قال لهم :

ـــ إذا طلعت لكم الشمس ، فأقبلوا مائة مائة ، كلما توارى عنكم مائة فليتبعها مائة ، فإن جاء هاشم فذاك ، وإلا جددتم للناس رجاء وجلدا .

وخرج رجال القعقاع ، واتجه هو ليهجع ويستريح حتى يستطيع أن يستأنف فى الغد قتاله ، وقد دارت نفس الفكرة فى رأس عاصم بن عمرو فأرسل رجاله فى الناحية الأخرى ، وأمرهم أن يفدوا إلى ميدان القتال جماعات جماعات ، فيفت ذلك فى عضد الأعداء .

استمر رجال القعقاع فى السير ، وقبل أن يبلغوا مكانهم المقصود ، قابلوا هاشماً وأصحابه ، فأخبروه برأى القعقاع وما صنع ، فعبأ هاشم رجاله سبعين سبعين ، وأمرهم أن يغذوا فى السير ليشدوا أزر إخوانهم .

تجلى النهار ، فأخذ الناس مواقفهم ، وراح سعد يجول فى الميدان بنظره ، فرأى الفيلة قد ظهرت فأوجس خيفة ، وخشى أن تفعل بالمسلمين كما فعلت بهم يوم أرماث ، فراح يفكر فيم يفعل ليؤمن المسلمين خطر الفيلة القاتل ، وفيما هو يفكر ، أخذت زوجه سلمى تقترب منه ، وقد عزمت على مصالحته ، فقد أسامت إليه ، وهى أعلم الناس أنه ليس

بجبان ولا هياب ، وأنه لولا عذره : لكان بطل الحلبة بلا جدال ، وجلست بجواره ، وظلت صامتة برهة ، ثم أخذت تحادثه عن الناس وما فعلوا فى أمسهم ، فالتفت سعد إليها وقال :

ــ رأيت بالأمس شيئاً عجباً ، رأيت فارساً على البلقاء كأنه مارد أو شيطان ، يضرب كأحسن ما يكون الضرب ، ولولا حبس أبى محجن لقلت هذا أبو محجن .

فقالت سلمى :

ــ صعد إليك أبو محجن أمس حين أمسى ، وطلب منك العفو ، فرفضت فنزل ، فأتانى وقال لى : « ياسلمى يابنت آل خصفة ، هل لك إلى خير؟ » . قلت : « وماذاك ؟ » . قال : « تخلين عنى وتعيرينى البلقاء ، فلله علىّ إن سلمنى الله أن أرجع إليك حتى أضع رجلى فى قيدى » . فقلت له : « وما أنا وذاك » فرجع يرسف فى قيوده ، وراح يقول :

كفى حزناً أن ترتدى الخيل بالقنا
وأترك مشدوداً على وثاقيا
إذا قمت عنانى الحديد وأغلقت
مصاريع دونى قد تصم المناديا
وقد كنت ذا مال كثير وإخوة
فقد تركونى واحداً لا أخا ليا
ولله عهد لا أخيس بعهده
لئن فرجت ألا أزور الحوانيا

فأخذت أفكر فى إطلاقه ، ونزلت إليه وقلت له : « إنى استخرت الله ورضيت بعهدك » وأطلقته ، فسألنى أن أعيره الفرس ، فقلت له : « أما الفرس فلا أعيرها ، ولكنه أخذ الفرس وأخرجها من باب القصر الذى يلى الخندق ، فركبها ثم دب عليها . ولما انتهى من قتاله ،

أقبل ودخل من حيث خرج ، وأعاد رجليه فى قيديه ، وقال :

لقد علمت ثقيف غير فخر بأنا نحن أكرمهم سيوفا
وأكثرهم دروعا سابغات وأصبرهم إذا كرهوا الوقوفا
وأنا وفدهم فى كل يوم فإن عميوا فسل بهم عريفا
وليلة قادس لم يشعروا بى ولم أشعر بمخرجى الزحوفا
فإن أحبس فذاكم بلائى وإن أترك أذيقهم الحتوفا

فنزلت إليه وسألته : « ياأبا محجن فى أى شىء حبسك ؟ » . قال : « والله ماحبسنى بحرام أكلته ولاشربته ، ولكنى كنت صاحب شراب فى الجاهلية ، وأنا أمرؤ شاعر يدب الشعر على لسانى يبعثه على شفتى أحياناً ، فيساء لذلك ثنائى ، ولذلك حبسنى . قلت :

إذا مت فادفنى إلى أصل كرمة تروى عظامى بعد موتى عروقها
ولا تدفنى بالفلاة فإننى أخاف إذا ما مت ألا أذوقها
وتروى بخمر الخص لحدى فإننى أسير لها من بعد ماقد أسوقها

واقتربت من سعد وقالت :

— وإنى أرى أنه ماقال هذا إلا ليرضى شيطان شعره ، فهلا عفوت عنه ؟ ؛ فأطرق سعد هنيهة ، ثم قال :

— على به .

وجاء أبو محجن ؛ فقال له سعد :

— اذهب فما أنا مؤاخذك بشىء تقوله حتى تفعله .

فقال أبو محجن :

— لاجرم والله لا أجيب لسانى إلى صفة قبيح أبدا .

* * *

طلعت نواصى الخيل ؛ فحسب الناس أن مدد هاشم قد وافى ففرحوا ، وكبر سعد ، وكبر القعقاع خلفه ، وكبر الناس ، وقالوا :

— جاء المدد .

وتقدم الفرسان ، وتكتبت الكتائب ، فاختلف الفريقان الضرب والطعن ؛ واستمر مدد المسلمين متواصلا ؛ وبلغت المعركة ذروتها ، ووصل هاشم الميدان ، فاتجه إلى القلب ؛ ولما رآه المسلمون ، كبروا فارتج المكان ، وأخذ المسلمون مصافهم ؛ وقال هاشم :

— أول القتال المطاردة ، ثم المراماة .

فأخذ قوسه ، فوضع سهما على كبدها ، ثم نزع فيها ؛ فرفعت فرسه رأسها ، فأصاب سهمه أذنها ، ولم ينطلق ، فضحك وضحك من حوله ، والتفت هاشم إليهم وقال :

— واسوأتاه من رمية رجل كل من رأى ينتظره . أين ترون سهمي كان بالغا ؟ .

— العتيق .

فمشى هاشم وسيفه فى يده ، وقد عزم على أن يبلغ ما لم يبلغه سهمه .

أقبلت القبيلة معها الرجاله يحمونها أن تقطع وضنها ، ومع الرجالة فرسان يحمونهم ، إذا أرادوا كتيبة دافعوا عنها بفيل وأتباعه لينفروا خيل المسلمين ، ولكن لم يحدث ما حدث يوم أرماث ، لأن الفيل إذا كان وحده ليس معه أحد ، كان أوحش ؛ وإذا أحاطوا به كان آنس ، فلم تنفر خيل المسلمين ، واستمرت المعركة متعادلة فلم يظهر فريق على فريق ، ولما رأى رجل يزدجرد الذى فى الميدان وصول المدد إلى المسلمين ، راح يصيح بوصولهم :

— وصل مدد المسلمين .

فصاح الثانى .

— وصل مدد المسلمين .

فصاح الثالث والرابع وهكذا حتى بلغ الخبر يزدجرد فى إيوانه ، فبعث إلى جيشه أهل النجدات ممن بقى عنده .

وراح هاشم يلعب برمحه وسلاحه ، ويخترق الصفوف ويتقدم لا يلوى على شيء حتى بلغ العتيق ، ذلك المكان الذي لم يبلغه سهمه ، ثم عاد إلى موقفه الأول ، وهو يصول ويجول كأسد ضرغام ، كثير عن أبياته ، لا يرضى لفريسته إلا المنون .

وراح سعد يتطلع إلى القتال الدائر أمامه في قلق ، إنه لا يطيق رؤية هذه الفيلة ، فعلى الرغم من أنها لا تعمل ما عملته في اليوم الأول إلا أنها لازالت تفرق كتائب المسلمين : فأرسل إلى بعض الفرس الذين أسلموا ، فلما دخلوا عليه سألهم :

— هذه الفيلة ، هل لها مقاتل ؟

— نعم ، المشافر والعيون ، لا ينتفع بها بعدها .

فأرسل سعد إلى القعقاع وعاصم :

— اكفياني الفيل الأبيض .

وكانت الفيلة الأخرى تتبعه ، وكان في القلب ، وكان بإزائهما ، وأرسل إلى اثنين آخرين :

— اكفياني الفيل الأجرب .

وعلم المسلمون ما يفعلون بالفيلة ، فدعا عاصم والقعقاع بعض أعوانهما وقالا لهما :

— اكتنفوا الفيل لتحيروه .

وتناولا رمحين أصمين لينين ، . وانطلق الجميع نحو الفيل الأبيض والتف الرجال به فتشاغل بهم ، فحمل عاصم والقعقاع عليه ، ووضعا رمحيهما معاً في عينه ، فنفض رأسه ، فطرح نسائسه ، ودلى مشفره ، فقطعه القعقاع ، فوقع الفيل على جنبه ، فهجم المسلمون على من كانوا عليه وجعلوا يقتلونهم قتلا .

وفي ذلك الوقت قال عمرو بن معديكرب لمن حوله :

— إلى حامل على الفيل ، فلا تدعوني أكثر من جزر جزور ، فإن تأخرتم عني فقدتم أبا ثور ، فإن أدركتموني وجدتموني وفي يدي السيف .

فحمل على فيل كان بإزائهم ، وراح يضرب في الرجال الذين حول الفيل ، ثار النقع : فحجبه فالتفت الناس بعضهم إلى بعض وقالوا :

— ما ننتظرون ؟ ما أنتم بخلقاء أن تدركوه ، وإن فقدتموه ، فقد المسلمون فارسهم .

فحملوا على الأعداء ، ولما اقتربوا منهم ، رأوا عمراً على الأرض والسيف في يده يضاربهم به ، ويذب عن نفسه ، والمشركين حوله فشدد المسلمون النكير ، فأفرج المشركون عنه ، فإذا عمرو مطروح وفرسه مطعونة بجواره ، واقترب فرس من عمرو وعليه فارس ، فأخذ عمرو برجل الفرس ، فاضطرب الفارس ، وسقط وتلفت حوله فلمح عمراً فاستل سيفه ، واتجه نحوه ليطعنه ، ولكن المسلمين كانوا قد وصلوا إليه ، فطعنوا الرجل فسقط قتيلا ، والتفت عمرو إلى أصحابه ، وقال : أحضروا فرسا لي ، فلما أحضرت ، قال لهم :

— أمكنوني من لجامها .

فأمكنوه منه ، فركبها .

قام الفيل الأبيض بعد أن طعنه عاصم والقعقاع في عينيه ، وبعد قطع مشفره ، وراح يضرب على غير هدى فكان إذا اتجه إلى صفوف المسلمين نخسوه ، فيعود إلى صفوف الفرس فينخسونه ، فيتجه إلى الناحية الأخرى ، واستمر بين العسكرين ، وأخيراً يمم صوب النهر ، فنزل فيه ، فتبعته الفيلة كلها ، فنزلت في النهر ، وحاول من فوقها أن يعيدوها سيرتها الأولى بلاجدوى ، فقد استمر الفيل الأبيض في عبور النهر ، والفيلة كلها في أثره ، فغرق من الفرس خلق كثيرا ، وانطلقت

الفيلة فى طريقها حتى دخلت المدائن .

خلا الميدان من الفيلة ، فتنفس المسلمون الصعداء ، وراحوا يقاتلون قتال الأبطال الصناديد ، ومال الظل فتزاحف المسلمون وأخذ فرسانهم يحمونهم ، والنجم الجيشان ، فتدفقت الدماء أنهاراً ، وسقط من المسلمين والفرس خلق كثير ، وأخذت السيوف تحصد النـــاس حصداً .

وأقبل الليل ، ومادب الفتور فى المقاتلين ، بل شاء كل من الفريقين أن يحسم الموقف ، وأن ينهى هذا القتال الدائر بلا هوادة أولين ، وكأنما أقسم المسلمون ألا يضعوا السلاح حتى يتم الله نصرهم ، ويعلى كلمتهم .

وراح سعد ينظر إلى القتال الرهيب ، فأيقن أن المسلمين قد عقدوا العزم على القتال طوال هذه الليلة التى سميت ليلة الهرير ، فأخذ يفحص ميدان القتال بنظره الثاقب ، فألفى مخاضه أسفل من المعسكر ، ورأى من الخير أن يحتلها المسلمون ، فأرسل فى طلب طليحة وعمرو بن معديكرب ، فلما جاءا قال لهما :

ـــ اذهبا إلى هذه المخاضة ، وقوما عليها خشية أن يأتينا القوم منها ، فإن وجدتما القوم قد سبقوكما إليها ، فانزلا بحيالهم ، وإن لم تجداهم علموا بها ، فأقيما حتى يأتيكما أمرى .

فخرج عمرو وطليحة ومن معهما وانطلقا إلى المخاضة فلم يجدا أحداً فراح طليحة يجول ببصره فى المكان ، وبان عليه التفكير ، وانقضت مدة ساد خلالها السكون ، ثم قال طليحة :

ـــ لو خضنا فأتينا الأعاجم من خلفهم ؟

فقال عمرو :

ـــ لا . بل نعبر أسفل .

ـــ إن الذى أقوله أنفع للناس .

ـــ إنك تدعونى إلى مالا أطيق .

ـــ لا تطلقن وحدى .

وانطلق طليحة ، وأخذ نحو العسكر من وراء العتيق وحده ، وسفل عمرو بأصحابهما جميعاً . أخذ طليحة يغذ فى السير حتى إذا وقف على ردم النهر خلف معسكر الأعداء ، كبر ثلاث تكبيرات ، فارتاع أهل فارس ، وظنوا أن المسلمين يبيتون الغدر لهم ، وتعجب لها المسلمون ، وحسبوا أن الأعاجم فتكوا برجالهم فهم يكبرون مستغيثين ، وأغار عمرو على رجال أسفل الخاضة ، فبات شك الأعاجم يقينا أن المسلمين قد أزمعوا الغدر بهم ولا ريب ، فعلام الانتظار ، فليزحفوا ، فقدموا صفوفهم زاحفين ، ورأى القعقاع ما صنعوا ، فلم ينتظر إذن سعد بالزحف ؛ بل زاحفهم ورأى سعد ما صنع القعقاع فقال :

ـــ اللهم اغفرها له وانصره : فقد أذنت له وإن لم يستأذنى !

واستمر المسلمون على مواقفهم وهم ثلاثة صفوف : صف فيه الرجالة أصحاب الرماح والسيوف ؛ وصف فيه المرامية ؛ وصف فيه الخيول وهم أمام الرجالة : وكذلك الميسرة ؛ وأرسل سعد إلى رجاله :

ـــ إن الأمر الذى صنع القعقاع ، فإذا كبرت ثلاثاً فازحفوا .

وأقام قيس بن هبيرة فيمن يليه ، ولم يكن قد شهد شيئاً من ليالى المعركة إلا تلك الليلة ، وقال :

ـــ إن عدوكم قد أبى إلا المزاحفة ، والرأى رأى أميركم ، وليس بأن تحمل الخيل ليس معها الرجالة ، فإن القوم إذا زحفوا ، وطاردهم عدوهم على الخيل لا رجال معهم ، عقروا بهم ، ولم يطيقوا أن يقدموا ، فتيسروا للحملة ، وراحت لشاب الأعاجم تتطاير وتجوز صف المسلمين

والتفت حامل لواء إحدى القبائل إلى أصحابه وقال :

ـــ إن المسلمين قد تهيئوا للمزاحفة ، فاستبقوا المسلمين الليلة إلى الله والجهاد ، فإنه لا يسبق الليلة أحد إلا كان ثوابه على قدر سبقه ، نافسوهم

فى الشهادة ، وطيبوا بالموت نفساً ، فإنه أنجى من الموت إن كنتم تريدون الحياة ، وإلا فالآخرة ما أردتم .

والتفت آخر إلى قومه وقال :

— يامعشر العرب ، إنه لا ينبغى أن يكون هؤلاء القوم أجرأ على الموت ، ولا أسخى نفساً عن الدنيا ، تنافسوا الأزواج والأولاد ، ولا تجزعوا من القتل ، فإنه أمانى الكرام ، ومنايا الشهداء . وترجل وراح يستعد لسماع التكبيرة الثالثة ليزحف ليقاتل ويقتل فى سبيل الله .

ثارت حمية القوم ، وانتظروا تكبيرات سعد بصبر نافد ، مابالله قد تأخر ، وصكت التكبيرة الأولى آذانهم ، فازدادت حرارتهم ، ومرت مدة حسبوها دهراً ، وارتفعت تكبيرته الثانية ، فلم يطق الناس صبراً ، ولم ينتظروا تكبيرته الثالثة ، بل تزاحفوا وانطلقوا إلى القعقاع ليشدوا أزره فى زحفه ، ولم يبق إلا الرؤساء ينتظرون التكبيرة الثالثة ، ولما بلغت آذانهم ، انطلقوا لينضموا إلى أقوامهم .

راح كل قائد ينتمى إلى قبيلته ، فكانت أصواتهم تجلجل فى سماء المعركة فهذا يصيح : « واكيماد » ، وذاك يصيح : « وا أسداه » ، وثالث يهتف : « وانخعاه » ، ورابع يهتف : « وابجيلتاه » ، وامتزجت الأصوات بصليل الحديد ، فكان دويها عظيما هائلا ، وكانت الأصوات تبلغ أذنى سعد ، ولكنه ما كان يستطيع أن يرى شيئاً ، فقد مد الليل رداءه الأسود ، فحجب عنه كل شىء ، ولم تغمض له عين طوال الليل ، وراح يدعو الله ، ويبتهل إليه أن ينصر دينه ، ويعز ناصره ، واستمر فى دعائه طويلا ، حتى بلغه تصايح شديد ، فراح يبحث عمن يستفسر منه عما يدور فى الميدان ، فلم يجد أحداً بالقرب منه ، فقد خرج الجميع ليضعوا حداً لهذه المعارك التى لم يظهر فيها فريق على فريق ، ووجد غلاماً بالقرب منه ، فأنفذه إلى الصف ليرى ما يدور ويعلمه به ، فانطلق الغلام حتى

بلغ الصف فرأى قتالا أذهله ، فجعل ينظر فاغر الفاه ، رأى رءوساً تطيح ، ودماء تتدفق ، كأنها نهر يفيض ، ورجالا تصول صولة الأسود ، وكاد ينسى نفسه وما أرسل له ، وراح يتتبع الفرسان وهم يلعبون بالسلاح ، ويضربون بالرماح ، وكادت ضربة من الضربات الطائشة تصيبه ، فأفاق من دهشته ، وتذكر ما أرسل له ، فقفل عائداً إلى سعد ليذكر له ما رأى . وما إن رآه سعد حتى سأله بلهفة :

— ما رأيت أى بنى ؟

فأخذ الغلام يقص ما وقع أمام عينيه .

وفى سكون الليل ، كانت الأم العجوز قلقة أرقة ، منزعجة مضطربة ، فما عاد أبناؤها وقد تصرم من الليل ثلثاه ، ولم يبق على طلوع النهار إلا قليل ، أمن المعقول أن تكون المعركة قد استمرت آناء النهار ، وآناء الليل ؟ أم ترى قتلوا جميعاً ولم يبق لها من أبنائها الأربعة أحد ؟ وأحست رهبة وأوجست خيفة ، لعلهم قتلوا ، ولعلهم استشهدوا جميعاً ، واستمرت الهواجس تلتابها ، وراحت الأفكار تهاجمها ، فوقعت فريسة لها ، وأخذت تدعو الله دعاء حاراً أن ينصر المسلمين ، وأن يعيد إليها أبناءها سالمين .

الفصل العشرين

نصر مبين

لاحت تباشير الصباح ، ورحى الحرب دائرة ، والناس حسرى لم يغمضوا ليلتهم كلها ، وصناديد المسلمين يلعبون بالسيف ، لم يهنوا ولم يدب الفتور إليهم ، وراح عمرو بن معد يكرب يمر بين الصفوف ويقول:

— لا يكونن هؤلاء أجد فى أمر الله منكم ، ولا يكونن هؤلاء لأهل فارس أجرأ على الموت منكم ، ولا أسخى أنفسا عن الدنيا .

واستمر القتال رهيباً ، وسار القعقاع فى الناس فقال :

— إن الدبرة بعد ساعة لمن بدأ القوم ، فاصبروا ساعة واحملوا ، فإن النصر مع الصبر .

واجتمع إليه جماعة من الرؤساء ، وشدوا على الأعداء ، وابتدأ الوهن يدب فى جيش رستم ، وكان هدف القعقاع طيارة رستم ، إنه يعمل جاداً على قتله ، فلو ناله بسيفه لدبت الهزيمة فى أوصال الجيش جميعه ، واستمر الضغط على جيش الفرس ، وأخذ يتزايد ، وكان ضغط المسلمين على جناحى الأعداء شديداً ، فتقهقر الهرمزان والبيرزان ، وهبت الرياح ، واشتد هبوبها ، فقلعت طيارة رستم عن سريره ، واستمرت الرياح تدفعها حتى بلغت العقيق فهوت فيه ، وبان سرير رستم ، فأخذ الجميع يشدون نحوه ، ولما رأى رستم انكشاف سريره ، قام عنه إلى بغال قد قدمت عليه بمال يومئذ ، واستظل فى ظل بغل وحمله .

استمر القعقاع ومن معه يشددون التكبير على الأعداء ، وينطلقون

قدماً حتى بلغوا سرير رستم ولكنهم لم يعثروا له على أثر ، فراحوا يستأنفون القتال ، ورأى هلال بن علقة بغلا يحمل حملا ، فضرب الحمل بسيفه ، وكان الحمل الذى استظل رستم فى ظله ، فسقط عليه فانتفض مذعوراً ، ورأى نفسه أمام هلال وجهاً لوجه والموت يطل من سيفه ، ففر ، وانطلق هلال فى أثره ، واستمر رستم يجد فى الفرار وهلال خلفه حتى بلغ رستم العقيق فألقى بنفسه فيه وابتدأ يسبح ، فاقتحم هلال النهر ، وأمسك برستم الذى قاوم ودافع عن حياته دفاع اليائس المستميت ، ولكن أين المفر ؟ فقد أطبق هلال عليه ذراعين فولاذيتين ، وخرج به إلى الشاطئ ، ثم تناول سيفاً وضرب جيده به ، حتى قتله ، ثم حمله بين يديه حتى بلغ سريره فوضعه فوقه ، ثم صاح :

— إلى . . . إلى ! قتلت رستم ورب الكعبة . . قتلت رستم . . .

فتدافع الناس نحوه ، وارتفع تكبيرهم حتى شق الجوزاء ، وبلغ عنان السماء ، ودبت الحماسة فى قلوبهم ، وانخلعت قلوب الأعاجم ، وراحوا يتقهقرون وما يدرون ما يفعلون ، ولمح ضرار بن الخطاب الدرفس كابيان فى يد حامل لوائهم ، فانقض عليه وعاجله بضربة قاتلة ، فسقط مجدلا ، وأخذ ضرار راية كسرى العظيمة .

رأى الفرس ما حل برستم ، وما حل براياتهم ، فدب الذعر بينهم وانهزموا ، وقام الجالينوس على الردم ونادى أهل فارس إلى العبور ، فراحوا يعبرون وسيوف المسلمين تعمل فى رقابهم ، ورأى سعد انسحاب الأعداء ، فنادى زهرة وأمره أن يتبعهم ، فسار فى أثرهم ، وانطلق حتى رأى الجالينوس يجمع شتات الفارين فهجم عليه وغافله وضربه ضربة كانت القاضية ، فتفرق شملهم وأمعنوا فى الفرار ، فلم يجد زهرة فائدة من تعقبهم فقفل عائداً إلى سعد .

بلغ النساء أن قد فرغ من الناس ، فتبددن عليهن ثيابهن وأخذن

الهراوى ، ثم انطلقن ، وخرجت الأم العجوز تبحث عن أبنائها . وراحت النساء يسقين الجرحى ويضمدن جروحهن ، وعثرت الأم العجوز على أحد أبنائها جريحاً ، فناولته جرعة ماء وضمدت له جرحه ؛ وقام يستند على ذراعها وراحا يدبان ويبحثان وينقبان حتى عثرت الأم على أبنائها جميعاً سالمين ، فغامت عيناها بدموع الفرح ، وراحت تغمغم شاكرة الله بصوت خفيض ، كله حرارة وامتنان وعرفان للجميل .

وأقبل زهرة ومن معه ، وكان زهرة يومئذ على فرس له ، ما عنانها إلا حبل مضفور كالمقود ، وحزامها شعر منسوج ، ولكنه تدرع ما كان على الجالينوس ، ولبس لبسه ، واتجه إلى سعد وكان عنده أسارى فى الفرس ، فلما رأوا ما يلبس زهرة قالوا :

ـــ هذا ساب الجالينوس .

وأقبل زهرة على سعد يقص عليه نبأ مقتل الجالينوس ، ولما فرغ من قصته سأله سعد :

ـــ هل أعانك عليه أحد ؟

ـــ نعم

ـــ من ؟

ـــ الله .

ـــ قد نفلتك سلبه .

وكان سعد قد أرسل رجلا لينظر له فى القتلى ، وليسمى له رءوسهم ، فأتاه وأعلمه أنه لم ير رستم فى مكانه ، فدعا هلالا وسأله :

ـــ ألم تبلغنى أنك قتلت رستم ؟

ـــ بلى .

ـــ فما صنعت به ؟

ـــ ألقيته تحت قوائم الأبغل .

ـــ اذهبوا وأتونى به .

فانطلق هلال وبعض نفر إلى الميدان ،وعادوا برستم ، فأعطى سعد هلالا سلبه ، وألقى جسد رستم بالقرب من باب القصر ؛ وجاء نفر من المسلمين فرأوا الجسد فعرفوه؛ فأخذوا يتفرسون فيه ؛ فوجدوا الضرب قد شوه وجهه ؛ فلما دخلوا على سعد قالوا له :

ـــ رأينا جسد رستم على باب قصرك وعليه رأس غيره ؛ فضحك سعد ؛ وكان البشر يشيع فى وجهه .

وراح المسلمون يجمعون الغنائم ، فجمعوا شيئاً كثيراً ، ما كانوا يحلمون بمثله ، وما كان يدور بخلدهم أن فى الدنيا مثله ، وارتفعت الشمس فى سمت السماء ، ووافى ميقات صلاة الظهر ، ولكن المؤذن قد أصيب فشاه خلق كثير أن يؤذن كل منهم ، فما أحلى الأذان غب الانتصار ، فتشاح الناس ، وارتفع بينهم الجدال ، حتى كادوا أن يجتادو بالسيوف ، وبلغ خبرهم مسامع سعد ، فاستدعاهم ، فأقرع بينهم ، وقام من خرج سهمه فأذن ، فاجتمع الناس للصلاة لله رب العالمين ، الذى نصرهم ذلك النصر المبين .

قتل من المسلمين خلق كثير ، فأصبح فى النخع سبعمائة امرأة فارغة وفى بجيلة ألف ، فلم يشأ الناس أن يتركوهن بلا عائل ، فأخذ كل قادر يتزوج منهن ، حتى تزوجن جميعاً ، وخطب بكير بن عبد الله الليثى ، وعتبة بن فرقد السلمى ، وسماك بن خرشه الأنصارى أخت زوج القعقاع ، فجاءت إلى أختها وقالت لها :

ـــ استشيرى زوجك أيهم يراه لنا .

فجاءت زوج القعقاع إليه وسألته ، فقال لها :

ـــ سأصفهم فى الشعر فانظرى لأختك ، وقال :

إن كنت حاولت الدراهم فانكحى سماكا أخا الأنصار أو بنى فرقد
وإن كنت حاولت الطعان فيممى بكبرا إذا ما الخيل جالت عن الردى
وكلهم فى ذروة المجد نازل فشأنكم إن البيان عن الغد

وتكدست الغنائم ، فأخذ سعد فى تقسيمها ، فاحتجز الخمس لعمر وقسم الباقى على الناس ، فنالهم خير كثير ، وأخذ الأخوة الأربعة أنصبتهم ، فحملوها ؛ وانطلقوا حتى أتوا أمهم العجوز فأعطوها كل ما أخذوا ، فراحت الأم تقسم الأنصبة بينهم وقد بان البشر فى وجهها ، وكان السرور يهزها ، رزق كثير ، وأبناء بررة صناديد ، بارك لها الله فيهم ؛ إن فى هذا لسعادة كبرى ، وغبطة ما بعدها غبطة .